ذاكرة المكان لدى المهجرين الفلسطينيين وأثرها في ثقافة حق العودة

أ. جهاد سليمان سالم المصري*

* المساعد الأكاديمي والإداري بمنطقة رفح التعليمية، جامعة القدس المفتوحة.

ملخص:

يتناول هذا البحث موضوع التأريخ لجزء من معاناة الشعب الفلسطيني على أثر نكبة عام ١٩٤٨م، وذلك بالاعتماد على ذاكرة المكان، فقد اعتمدت روايات ذات صلة أدلى بها شهود عيان استأنسوا بذاكرة المكان لاسترجاع مواقف وأحداث، واستحضار صور ومشاهد، وبعد مراجعة ودراسة مستفيضة لتفاصيل هذه الروايات، تبين أن المكان شكل عاملاً مهماً في بنية هذه الروايات، وفي صياغة أدبياتها، حيث إن مفردات المكان ومفاهيمه كشفت للرواة ما خبأه الزمن وما أبعده العمر، فالمكان بروحه وإحساسه استطاع أن ينفض غبار الزمن عن أحداث ومواقف ولت، وأن يزيح تراب الماضي عن مشاهد وصور أفلت، فعمل على إحيائها من جديد، ثم قدمها للإنسان بملامح مكانية معروفة يسهل عليه قراءتها وتفسيرها بعد غربة طويلة. ومن هنا فإن نجاح الباحث في الالتقاء بالراوي في فناء مكانه يعتبر نجاحاً في استدعاء أحداث واجترار صور ستكون مستعصية في ظروف عادية، ولذلك فإن الالتقاء بالرواة في أماكن مستهدفة أمر له أهميته في مجال البحث في التاريخ الشفوي، لأن المكان يعتبر عاملا مهماً في تحريض ذاكرة الراوي، وحثها على ربط الأحداث بأماكنها، ومن هنا فإن اهتمام الباحث بذاكرة المكان لدى الرواة، يعد من أهم تقنيات ومناهج البحث في مجال التاريخ الشفوي. كما أن ذاكرة المكان لها دور كبير ومهم في إعادة تركيب ملامح الوطن الضائع، وصناعته من جديد في مخيلة أبناء النكبة الذين حملوا صورة هذا الوطن بين أفئدتهم كي يسلموها إلى أبنائهم وأحفادهم، ليناضلوا من أجل إعادة الحياة إلى تلك الصورة المهجورة وشحنها بحلم حق العودة.

Abstract:

This research talks about the subject of chronicling part of the Palestinian people suffering, which resulted from the 1948 disaster. This occurred by reliance on place memory. The scholar adopted related narration given by the witnesses who resorted to the memory of place to retrieve situations, events and to recall photos and scenes. After scrutinizing and examining the details of these narrations, it was clear that place was an important factor in the formation of these narrations as well as their literature. The parts and connotation of place revealed for the narrators whatever hidden by time and kept away by age. Place, by its spirit and sense, was able to dust off events and situations that were of the past. It was also able to remove the sand of the past to reveal scenes and pictures which faded and revived them. Afterwards these pictures are to be introduced to humans with known place features easy to read and interpret after along alienation. The success of the researcher in meeting the narrator in his place is considered success in recalling events and ruminating pictures, which is difficult in normal circumstances. Therefore, meeting the narrators, integrated places, has its importance in the field of research and verbal history. This is because place is considered an important factor in stimulating the narrators memory and to push to link the events with places. To sum up, the researchers interest in the place memory of the narrators is considered one of the important methods and techniques of research in the field of verbal history. In the same context, the memory of place plays an important role in restructuring the feature of lost land and its reproduction in the reflection of catastrophe (Nakba) people who held the picture of land between their hearts in order to transfer it to their children and grand children so that they may struggle to return the land and its deserted image to the mind and charge it with right of return.

مقدمة:

الإنسان ليس وليد المكان فقط، بل هو وليد تاريخ مرتبط بالمكان، ولذلك فإن عوالم المكان ومفرداته هي التي شكلت البناء المكاني الذي يعتبر جزءاً أصيلاً من ثقافة الإنسان الفلسطيني وامتداداً طبيعياً لمظاهر شخصيته، وبهذا المعنى فإن المكان يتجاوز دلالته الجغرافية المحدودة ليصبح إحدى المحددات المركزية للهوية الفلسطينية، فهو كيان زاخر بالحياة، وهو عمق تاريخي تمتد جذوره إلى تراث الإنسان وقيمه وعاداته وتقاليده.

إن سلطة المكان امتدت لتطال جميع أوجه الحياة الفلسطينية ومظاهرها المختلفة، فمفردات المكان ومفاهيمه هي التي أصبحت تنظم قصائد الشعراء في المنافي والشتات، وتنسج الحكايات والأساطير بين الوديان والجبال، وتزف الأفراح وتبارك المناسبات، وهي التي تشيد أحلام البساطة والقناعة، وتلون رموز الكفاح والتضحية، وهي التي تستقبل الصباحات الباكرة وتودع المساءات الدافئة، وبهذا المعنى فإن المكان الفلسطيني أصبح ينطق ويسمع ويفكر، فتشكل ما يسمى في الفكر الفلسطيني بوعي المكان، حيث وصلت ثقافة المكان إلى جميع عتبات الحياة الفلسطينية، وتوغلت في أعماق تفاصيلها، فأصبحت مفرداتها تنبض على إيقاعات المكان وموسيقاه.

ولذلك فإن الإنسان الفلسطيني عندما فقد المكان أثر زلزال النكبة، أصيب باليتم المكاني، فأصبح هائماً على وجهه، يبحث في كل شيء عن مكانه الضائع، وعندما ازدحمت طريقه بقوافل المشردين واللاجئين، قام بتعميم ملامح مكانه وتقاسيمه على لوحات رسوماته، ودونها في دفاتر أشعاره، ونادى عليها بأصوات أغانيه ورصاصاته، ولهذا أصبح الخطاب اليومي لدى المهجرين الفلسطينيين خطاباً مكانياً، فعناوين صفحات يومياتهم أسماء قرى ووديان وجبال، ورسوماتها مواسم الحصاد وقطاف الزيتون، ومدادها رحيق بيارات البرتقال، وظلالها أشجار التين والرمان والخروب، وموسيقاها تغاريد طيور النورس.

لقد حمل الإنسان الفلسطيني المكان معه في حله وترحاله، فأصبح يمطر مع أمطاره، ويهب مع رياحه، ويأكل من مواسم حصاده، ويغرد مع طيوره، ويموج مع حقوله، ويثمر مع أشجاره، ويتصدع مع بيوته، فالصور المكانية لا تكاد تبرح خياله، بل ظل ينسج منها حكايات حب وانتماء ليودعها في رحم ثورة أبنائه وأحفاده، كي يعيدوا له شروق الشمس التي تركها وراء التلال، فظلت مختبئة بانتظار وقع أقدام فلاح يحرث أرضه، ودفء مشاعر فلاحة تشعل فرن طابون، لتخرج حينها من مخبئها، وتضيء الأمل في حياة أسرها الغروب طويلاً بتهمة الانتماء والأصالة.

ولذلك فإن ذاكرة المكان أصبحت عصب التأريخ للحياة الفلسطينية، فهي ذاكرة راقية تمتلئ برحيق الحب والانتماء، وتكتنز بذكريات التراث والتاريخ، وتحتضن صور الفداء والتضحية، وتخبئ مشاهد الأصالة والعراقة، وتحرس أحلام الطفولة والصبا، وتحنو على ظلال التحرير والعودة، ومن هنا فإن المكان يعدُّ مصدراً غنياً ومتنوعاً لتوثيق تاريخ الحياة الفلسطينية، ففيما يتعلق بالنكبة، فإن ذاكرة المكان رصدت مظاهر الانتماء والاستقرار والأمان والهدوء والبساطة التي كان الإنسان الفلسطيني ينعم بها قبل النكبة، وفي أثناء النكبة سجلت ذاكرة المكان صور المجازر والمذابح، ومشاهد اللجوء والتشرد، وبعد النكبة قويت ذاكرة المكان، إذ أصبحت مصدراً لتكريس حق الإنسان الفلسطيني في أرضه، فقد لعبت دور الحارس الأمين لذكريات أودعها الإنسان الفلسطيني في رحم أرضه، ورسمها على جدران بيوته الطينية، ونقشها على صخور جبال قريته، وهمس بها إلى أشجار بياراته.

ذاكرة المكان لدى الإنسان الفلسطيني قبل النكبة:

يشكل المكان لدى الإنسان الفلسطيني صرحاً لمفاهيم الأصالة والانتماء، فهو بيت الطفولة وبيارة البرتقال وشجر التين واللوز، وهو جداول المياه وخبز الطابون والمرعى ومواسم الحصاد، وهو الأسطورة والحكاية، وهو المواسم والأعياد والمناسبات. كما أن المكان لدى الإنسان الفلسطيني يشكل قاموساً لمعاني الاستقرار والسعادة، فهو الحياة الوادعة البسيطة، وهو القناعة والهدوء والأمان، وهو الأمل والطموح. ولعل قليلاً من التمعن في روايات عدد من المهجرين الفلسطينيين التي استرجعوا فيها ذكريات المكان قبل حدوث زلزال النكبة، يعتبر مؤشراً كافياً لرصد صورة واضحة المعالم عن حياة الرضا والاستقرار والهناء التي كان ينعم بها هؤلاء، فالحاج يوسف إبراهيم عبد الدين من قرية الدوايمة، ويسكن الآن في مخيم الجلزون عبر عن هذه الحياة بقوله: «الناس كانت تعيش من منتوجات البلد بقناعة وبساطة»(١). ويتحدث الحاج يوسف الشاعر من قيسارية قرب حيفا بكلمات تعتبر عناوين للقناعة والبساطة والهناء، فيقول: «كنا نعيش حياة بسيطة ككل الناس في ذلك الزمان، نأكل ما يكفينا الجوع، ونعمل طوال النهار في صيد الأسماك، ونلبس ما يقينا البرد والقيظ، ومع ذلك كنا نقول الحمد لله»(٢). وبنفس مشاعر الرضا والقناعة عبر عبد الغني دولة (مواليد١٩٤١م) من مدينة يافا عن حياة الفلسطينيين قبل النكبة، حيث قال: «قبل الرحيل كانت العيشة كويسة، البلاد مفتوحة على بعضها، نروح على حيفا وعلى اللد في العطلات، وعالبحر نروح، كنا عايشين جنب البحر عيشة رفاهية، إشي فوق التصور»(٣). وهذا ما أكدته حورية ملالحة من السامرية، حيث قالت: «كان أهل السامرية يتعاونون في الحياة والعمل، ويساعد القوي الضعيف، وكان الناس يشاركون

بعضهم في كل المناسبات الحلوة والمرة»(٤). ولعل رواية غوسطة دكور من قرية ترشيحا تعتبر من أجمل اللوحات الفنية التي تحتفظ بها فلاحة بسيطة لتذكّرها بابتسامات قريتها قبل النكبة، فتقول: «كانت النساوين تروح على الوعور، وكنت ألحق أمي وأنا صغيرة، هيه تحطب وأنا أجمع الحطب... كل شغلنا كان على الحطب، خبز، تسخين، مي، طبيخ، لا كان غاز ولا إشي، قبل ال٤٨ كنت من الصبح أقوم أطلع على كرم التين حتى أجيب سلة تين لأبوي، كان يوكل تين قبل ما يطلع على الشغل. بتذكر كان يفيقني ويقولي يالله يابا... بعرفني أنا نشيطة... ما تصير الساعة ستة إلا أنا جايبه تين... بعدين أبدأ أعجن وأخبز، كان عمري حوالي ١٥سنة»(٥).

يمثل الإنسان الفلسطيني حالة استثنائية في مسألة قوة ارتباطه بالمكان، ربما لأن هذا المكان كان على مر الفترات التاريخية عرضة للأطماع الاستعمارية ولمحاولات السيطرة عليه، ويبدو أن هذه الدوامة التي لم تنته، دفعت بالإنسان الفلسطيني للالتصاق بالمكان بشكل قوي وعنيف حتى أصبح شغله الشاغل، فتراه دائم الجلوس على شواطىء المكان يتأمل تقاسيمه حتى غدا فناناً يعكف على رسم لوحة تلون ملامح هذا المكان، وشاعراً يسهر على نظم قصيدة تداعب أطلال طفولة هذا المكان وبهائه، وقاصاً يجهد في نسج رواية تحكي قصص هذا المكان وخطوات كفاحه، وليس أدل على ذلك من رواية خالد منصور عضو المكتب السياسي لحزب الشعب الفلسطيني، وهو يصف جمال طبيعة بلدته أم الزينات، فيقول: «كان أبي يغالي في وصف بلدته أم الزينات حتى جعلها قطعة من الجنة والفردوس العظيم، إلا أنني وبعد أن كبرت وذهبت إلى هناك لزيارة أطلال البلدة برفقة أبي في العام ١٩٧١م، دهشت كثيراً من جمالها وطبيعتها الفتانة، وقلت في حينها: لقد كان أبي على حق، فأم الزينات هي الجنة بعينها، فيها الجبل الشامخ (جبل الكرمل) وما أدراك ما الكرمل...! وفيها الغابات والأحراش، وفيها الينابيع والآبار، وفيها السهل المنبسط الخالي حتى من الحصى، وفيها الوعر وكروم الزيتون... قرية كانت تربض كالقلعة على سفوح جبل الكرمل العظيم لتطل على البحر الأبيض المتوسط من جهة، وعلى سهل مرج ابن عامر من الجهة الأخرى، وتنبسط أراضيها كالكف في سهل الروحة الفسيح لتنتج الحنطة والبقوليات والذرة، إضافة إلى ما تنتجه أراضيها الجبلية من زيتون وكل ما تشتهيه الأنفس من أصناف الفواكه كالتين والرمان والعنب والصبر»(٦).وفي هذا السياق يتحدث عبد الرازق اليحيى القائد العام السابق لجيش التحرير الفلسطيني واصفاً افتتانه بطبيعة القرى الفلسطينية لدرجة أنه تحول إلى فنان عاشق لهذه الطبيعة، فيقول:«وفي تلك الفترة من إقامتي في الطنطورة، اشتد افتتاني بطبيعتها الأخاذة، وزاد تواتر جولاتي وسط هذه الطبيعة، ونمت عندي هواية الرسم التي ستلازمني لزمن طويل، وكنت كثيراً ما

أتجول في محيط القرية والقرى المجاورة أحمل حقيبة فيها بعض الملابس وأدوات الرسم لأرسم مناظر طبيعية، على هذا النحو، تعرفت بعين عاشق الطبيعة على قرى منطقة حيفا جميعها»(٧).

إن قوة ارتباط الإنسان الفلسطيني بأرضه وصلت إلى درجة أنسنة المكان، فكثيراً ما كان يخاطب موجوداته، ويحاور مفرداته، فيقيم معها علاقة روحية يصوغ خلالها مشاعر التقدير والاحترام لرموز المكان وتراثه وقيمه وعاداته، ولعل مشاعر الغبطة والفرح التي جاشت في صدر الفنان الفلسطيني سليم مخولي عندما احتضن المكان بمفرداته وعوالمه في أثناء زيارته لقريته كفر برعم، قد طغت عليها مشاعر الحزن والألم، وذلك حينما رأى ما حل بها من دمار شامل، فأصيب بنوبة ذهنية أوصلت خياله إلى مرحلة يتوق فيها إلى إحياء الموجودات المكانية لاستنطاقها كي يعرف منها الحقيقة، فيقول: «اتخذنا مكاناً للجلوس في ظلال الأشجار وباشرنا عملنا، كل يرسم حسب هواه بصمت وانفعال، رسمنا الكنيسة وما شاهدناه من حيطان وقناطر وأقواس وحجارة مبعثرة وغيرها، شعرنا بأنفاس أصحابها حولنا، وعيونهم تطل على لوحاتنا، حين عملنا كانوا معنا وكنا معهم، وكم وددنا أن نسأل أحدهم كيف تم هذا؟ وكيف تركتم بلدكم الجميلة الرائعة ؟(٨). فارتباط الإنسان بالمكان وإحساسه به شيء فطري، والإنسان لا يحتاج إلى مساحة فيزيقية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصل فيها هويته، وهذا ما أشار إليه الكاتب والصحفي الفلسطيني فيصل حوراني المقيم حالياً في فينا عندما قال: «جبت عوالم الشرق والغرب، لم تبق جهة لم أزرها... خبرت المدهشات حتى لم يعد شيء يدهشني، فماذا بقي، لا شيء إلا أن يكون مما له صلة بحكاية حكاياتي كلها، وحكاية حكاياتي هذه تتخلص في حاجتي إلى مكان يخصني، مكان أشعر نحوه بالولاء(٩). ولذلك فإن تجذر المكان في نفوسنا يؤكد أن علاقتنا بالمكان تنطوي على جوانب شتى ومعقدة تجعل من معايشتنا له عملية تتجاوز قدرتنا الواعية لتتوغل في لاشعورنا، إذ يصطبغ الإنسان بمكانه ويعكس مزاج بيئته ومواصفاتها(١٠).

فالمكان لدى الإنسان الفلسطيني ليس مجرد بقعة جغرافية تحتضن الناس والأشياء، وإنما هو إطار يحوي منظومة القيم والأخلاق والأفكار والتقاليد والسلوكيات، ولذلك فإن البناء المكاني الفلسطيني يتشكل من موجودات ومكنونات تعدُّ جزءاً أصيلاً من مكونات شخصية الإنسان الفلسطيني وفكره، فالمكان عنده ليس مجرد حيز جغرافي فحسب، وإنما هو ثقافة بكل مفرداتها وخصائصها... إنه الأمان والاستقرار، العطاء والخير، الأصالة والتراث، الحلم والأمل، بل هو الوجود أو العدم.

لقد استعان الإنسان بالأسطورة والحكاية والقصيدة والأغنية لإعمار الفضاء الجغرافي بالمعاني والرموز والقيم بهدف تحويله إلى مكان قابل للسكن، وبهذا المعنى يكون الإنسان خالقاً للمكان الذي يسكنه، فينتقل المكان من كونه منطقة جغرافية إلى مكان إنساني واجتماعي، وذلك بعد تأثيثه بالمعنى وإعماره بالدلالة وشحنه بالرمز، فتتحول مفردات الجغرافيا إلى رموز وأيقونات، مما يخرج بالمكان من حقل الجغرافيا إلى حقل التاريخ والثقافة، فيصبح المكان عامراً بالمعنى ومؤهلاً لاحتضان الإنسان، فالإنسان لا يمكنه أن يعيش في خراب دلالي وفراغ رمزي (١١). والمكان الفلسطيني قبل النكبة كانت تحتشد به عوالم وحيوات حبلى بقيم ورموز وعادات وتقاليد، وهذه في مجملها تشكل مفردات تعدُّ جزءاً أصيلاً من كيان الإنسان الفلسطيني وثقافته، ولعل في رواية الحاجة فاطمة نجم (١٠٤ أعوام) وهي تسترجع إحدى يومياتها الريفية في مدينة أسدود قبل النكبة ما يفيد بذلك، حيث اهتمت بذكر أدق تفاصيل مفردات الحياة الريفية الفلسطينية في تلك المرحلة، وهي حياة بسيطة عنوانها الألفة والمحبة، يؤطرها مكان تفوح من روحه رائحة التراث وعبق التاريخ، فتقول: «عقب آذان العشاء، وبعد أن تنام صغيراتي أعجن الطحين وأغطيه للصباح من أجل إعداده لوجبة الإفطار، حيث كنت أقطن داخل المنزل مع زوجي وزوجته الأولى الحاجة آمنة وصغيراتي الخمس، وكنت أصحو على صوت جار لنا يدعى (العبد عيش) حينما يفتح باب داره ليذهب إلى الصلاة، ومن ثم إلى عمله في الحقل، أعد الخبز على الصاج بعد إشعال النار... وتصمت للحظة وكأن ذاكرتها تذكرها بأصوات ذاك الصباح، حيث أصوات الواويات تنبح في الصباح الباكر، وهي على شاكلة الذئب ذات لون أحمر، وتختفي مع شروق الشمس، وتضيف قائلة: ومن ثم أضع العلف للدواب في المذود الخاص للعلف، ومن ثم أنتقل إلى داخل المنزل لأوقظ زوجي من النوم، وأجلب معي إبريق المياه كي يتوضأ ويصلي الصبح حاضراً بصحبة الجيران في مسجد المدينة، وأنتقل في غيابه إلى الحاكورة أصطاد مجموعة من القنافذ لإعداد وجبة الإفطار، وأضعها في اللقان بعد عملية الذبح، وأقوم بطبخها على النار، ومن ثم أضعها في الإناء المخصص لها بعد أن أضع عليها الملح والزيت، وعندها يأتي زوجي يتناول ذلك الإفطار الشهي، ومن ثم يتوجه إلى عمله، فيحمل السكة والبذارة على كارة الدابة، ويذهب إلى الأرض لحرثها وبذرها، مشيرة إلى أنها كانت تعد الفطائر والبيض المسلوق ليأخذه إلى الحقل ليتناول وجبة الغذاء هناك برفقة شقيقه، وتضيف قائلة: وقد كنت في المنزل أهز التبن و أحلب الناقة وأعجن كي أخبز مرة ثانية، وأشعل النار داخل الطابون، فما أن يسخن وتزداد حرارته أبدأ بالخبيز، مشيرة إلى أنها كانت تقوم كذلك بزراعة الأرض المجاورة للمنزل»(١٢).

كما أن الرواية التي أفاد بها فيصل حوراني تشكل لوحة تعبيرية لمقطع من طفولة الحياة القروية يظهر نشوة الصبية وهم يداعبون عوالم المكان الفلسطيني، فيقول:» وكنا نجتمع في ساحة القرية، ثم توزعنا الأمزجة وتأثيرات الظروف والرغبات المتفقة والمتباينة على فرق متعددة، وكان من هذه الفرق ما يتوجه إلى البساتين والبيارات المتطرفة ليتلذذ بالسطو على ثمارها، ومنها ما كان يؤثر التسريح في البراري والبحث عن الأعشاب والفطور والثمار البرية والزهور النادرة، أو ينطلق لمطاردة الحراذين والسحالي، أو متابعة الفراشات، أو مناكفة الحيات اللابدة في جحورها، أو البحث عن أعشاش الطيور وبيوضها»(١٣). ولعل المراجعة الدقيقة لتفاصيل هذه الروايات تكشف عن فضاء طافح بعوالم ومفردات المكان الفلسطيني، وعن مظاهر لبنية عقلية تقليدية محافظة تؤطر المكان بالأصالة والانتماء لتضمن له حماية ذاتية ضد كل ما يهدد وجوده.

فالمكان لدى الإنسان الفلسطيني يتجاوز موقعه الجغرافي ليتحول إلى قصيدة وأسطورة وبؤرة جمالية تفسر علاقة الإنسان بالمكان، فهو يهب مع رياح بلدته، ويمطر مع أمطارها، وينبع من عيونها، وتراه يواجه قساوة المكان وعنف الطبيعة برهافة المعنى ونشوة المشاعر، فالأديب الفلسطيني إحسان عباس وهو في الرابعة من عمره كان «يلذ له أن يقف على عتبة بيتهم في قرية عين غزال (قضاء حيفا) ليشهد هطول المطر الغزير وهو يملأ الجرن الحجري في فناء الدار، ثم يدخل إلى البيت ليستمتع بحكايات جدته عن الشاطر حسن والغول فيما تتراقص ألسنة النار من المنقل»(١٤). وفي إحدى مقاطع رحلة عمرها تصف الشاعرة فدوى طوقان وعورة جبال مدينتها وقساوة المكان فيها بأنها كانت مصدر كبير لسعادتها وفرحها، فتقول: «كان أخي (إبراهيم) يصطحبني إلى الجانب الغربي من سفح جبل عيبال، كان يأخذ مجلسه على واحدة من صخور الجبل الكلسية، ويسمح لي بالانطلاق بينما ينصرف هو إلى التأمل، أما أنا فكنت أمضي إلى الشعاب القريبة أقفز كالمعزى من صخرة إلى أخرى، وأتطلع حولي باحثة عن بقلة الشمور ذات الرائحة الزكية التي كنت أحب مذاق سيقانها الطويلة المستديرة الريانة، كما كنت ألملم باقة من زهر قرن الغزال وشقائق النعمان والبابونج، وبين حين وآخر كان إبراهيم يلتفت ويوصيني بألا أوغل بعيداً عنه»(١٥).

وكي لا تصدأ روح المكان، وتبقى مخيلته مصونة من عوادي الزمن، قام الإنسان الفلسطيني بإعمار فضائه بالأساطير والمرموزات، وقد امتزجت هذه الأساطير والمرموزات بمفردات المكان، وأصبحت جزءاً من مكوناته، فأغنية الروزانة الشهيرة أصلها قصة نسجتها روح المكان عند مدخل بيت التراث (١٦)، والروزانة هي فتحات شبابيك المشربية، هذه الفتحات السرية التي تمكن أهل البيت من مراقبة المارة بدخولهم وخروجهم من

السوق دون أن يتمكن أحد من مشاهدتهم، وهي مصممة بأشكال مختلفة كانت تستخدم للتهوية والضوء، ويروى أن شاباً أحب فتاة كان يراقبها عن طريق تلك الفتحات، وحين علم أبوها بالأمر رحل معها إلى حلب، فانكسر قلب الشاب وغنى تلك الأغنية لحبيبته التي رحلت عنه(١٧)، وقد أصبحت هذه القصة ضمن أدبيات المكان الفلسطيني، حيث نقشت هي وغيرها على جدران البيوت الطينية، وتربعت بين أحضان الجبال العاتية، واحتضنتها أشجار الخروب الباسقة، وتعطرت ببرتقال البيارات النضرة، فنمت وترعرعت حتى غدت أسطورة تداعب مخيلة ساكن المكان.

كان المكان الفلسطيني قبل النكبة يعج بالحركة ويزخر بمظاهر الحياة، فقد كان ألبوماً تحتشد فيه كل مرموزات الوطن وسحره، وينبض كل جزء فيه بتراث الإنسان وقيمه وعاداته، ولعل جغرافية المكان المرسومة بأساطير الحب، والملونة بحكايات الانتماء، قد جعلت من الإنسان الفلسطيني إنساناً مسكوناً بهاجس المكان، وهذا الأمر أخرجه من سكونه، ودفعه إلى الترحال والسفر في تفاصيل المكان لرصد تجليات المشهد المكاني بكل صورها ومظاهرها... صورة بيت الطفولة والصبا المأهول بذكريات العمر، وكما يقول باشلار: «فإن البيت الذي ولدنا فيه بيت مأهول، وقيم الألفة موزعة فيه... فالبيت الذي ولدنا فيه محفور بشكل مادي في داخلنا»(١٨). وصورة سفوح الجبال وهي تشهد المباهج الموسمية والأفراح الاجتماعية، ففي آخر لقاء صحفي لها تروي الشاعرة فدوى طوقان جزءاً من رحلة عمرها الصعبة، فتقول: «لم تكن خالتي تنجب أطفالاً، فكنت أقيم عندها أياماً متواصلة، ومن خلالها تعرفت على كثير من المباهج الموسمية والأفراح الاجتماعية كأيام النيروز، حيث كانت العائلات تخرج من الصباح الباكر إلى سفوح الجبال والسهول لتنعم بالصباحات الربيعية الندية، وقد حملوا معهم أواني الشاي والقهوة، ويبقون حتى تغرب الشمس»(١٩). وصورة الأرض وهي تموج فرحاً بإطلالة مواسم الحصاد، فتروي الحاجة فاطمة نجم (١٠٤ أعوام) من إسدود قائلةً: «ما أجمل طفولتي وبعض سنوات صباي التي عشتها بين الأرض والزرع والحصيدة مع والدي ووالدتي، ومع زوجي وأبنائي هناك في مدينتي إسدود الأبية العصية على الاندثار والتحول، الصامدة القوية التي تئن لفراق الأهل والأحبة الذين أرغموا على الرحيل وعيونهم وأفئدتهم وأرواحهم ما زالت هناك»(٢٠). وصورة الغدير الذي يتلصص إليه العرسان لرؤية عروس المستقبل، وهي برفقة صديقاتها تملأ الجرة بالماء، وفي ذلك تقول الحاجة فاطمة نجم وهي تستعيد ذكرياتها الجميلة في مدينة إسدود: «بعض العرسان كانوا يرون زوجة المستقبل عندما كانت تمر يومياً لملء الجرة بالماء من الغدير برفقة صديقاتها، مضيفةً: ولكن حذار أن يكلمها أو يتفوه بكلمة واحدة، أما هي فلا يحق لها النظر إليه مطلقاً»(٢١).وصورة فرن الطابون عندما كانت

الجارات والصديقات والقريبات يلتقين في فنائه خصوصاً في فصل الشتاء، ويقوم الطابون في هذه الحالة بالوظيفة نفسها التي يقوم بها» الديوان» بالنسبة للرجال، فهن يتسامرن ويتمازحن ويتبادلن الأخبار والأسرار والإشاعات، ويتناقشن في كل ما يهم المرأة في القرية (٢٢). وصور عديدة أخرى ارتبطت بمفردات الجغرافيا، ولكن أعيدت كتابتها على صفحات المكان بمشاعر الحب والسعادة، وبلغة الأصالة والتراث.

ذاكرة المكان لدى الإنسان الفلسطيني في أثناء النكبة:

يعدُّ موضوع الأرض من أهم محاور الأيديولوجية الصهيونية ومن أكثر طروحاتها كما يستدل عند مراجعة أدبيات الحركة الصهيونية التي زخرت بفيض من التحليلات والتصورات والمخططات التي تناولت هذا الموضوع وعالجته منذ بداية تشكلها كفكرة، وإلى ما بعد نجاحها في تجسيد المرحلة الأولى من مخططها الاستعماري / الإحلالي بإقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م(٢٣).

ولذلك ركز الصهاينة على استراتيجية تغييب المشهد المكاني الفلسطيني، وقد ظهر هذا الشيء في شهادات كثير من الرواة حين تحدثوا عن إقدام العصابات الصهيونية على إحراق البيوت وهدم المرافق العامة وقصف المعالم الأثرية وجرف الأشجار، وتحويل عدد كبير من الأبنية العربية إلى مرافق يهودية، وأحياناً كانت العصابات الصهيونية تصعد في سياستها التدميرية، فتقدم على مسح قرى عربية بأكملها عن الوجود، ولعل حالة الهذيان التي أصيب بها أستاذ التاريخ الفلسطيني الدكتور نمر سرحان عندما شاهد الدمار الذي حل بقريته السنديانة، قد صورت بوضوح فظاعة العدوان الصهيوني على المكان الفلسطيني، فقد تحدث أستاذ التاريخ الفلسطيني الدكتور مصطفى كبها عن هذا الموقف قائلاً: «في العاشر من حزيران ١٩٩٨م عدت وإياه (نمر سرحان) إلى القرية، أصيب بحالة من الهذيان قائلاً: إن السنديانة الآن هدمت، وحتى ذلك الوقت كانت واقفة شامخة في مخيلته بمبانيها وأزقتها»(٢٤). ومما يروى في هذا السياق أيضاً ما ذكره أبو رائد بركات عن مشاهد الدمار التي حلت بقريته يازور (يافا)، حيث يقول: «البلد كلها هلا تقريباً مدمرة، بس ضل منها المدرسة ومقام القطناني ومقام الإمام علي، والجامع عملينه كنيس»(٢٥). ومن قيسارية قرب عكا انطلقت صرخات الحاج يوسف الشاعر حسرةً وألماً عندما شاهد الدمار الذي حل ببلدته قيسارية على يد العصابات الصهيونية أثناء حرب عام ١٩٤٨م، فيقول: «قبل عشرة أعوام ذهبت مع أبنائي وأحفادي في رحلة عائلية، اختاروا أن تكون قيسارية موطنهم الأصلي، ويا ليتني لم أذهب ! فقد وجدتها مدينة غير التي عرفت، وغير التي نشأت فيها، تجولنا في الشوارع، لقد تغيرت معالمها، واستبدلت وجوه الناس فيها بوجوه غريبة، لا

تحمل سمرة بشر سكان الساحل... ثم أخذ يطرق بكفه على الكرسي الذي كان يجلس عليه حين أحضر لنا أحد أحفاده صورة لمطعم شهير يحمل لوحة الكترونية مشتعلة بالإنارات كتب عليها باللغة العبرية (تودا لئيل) وتعني شكراً للرب، يقول أبو عمر: لقد كان هذا المطعم بيتي، عشت فيه مع إخوتي وإخواني ووالدي، كنا نعيش حياة بسيطة ككل الناس في ذلك الزمان»(٢٦).

ومن قرية كفر برعم سالت دموع ريشة الفنان الفلسطيني سليم مخولي، وخضبت ألوانها لوحات عديدة رسمت مشاهد نكبة المكان الفلسطيني في أثناء حرب عام ١٩٤٨م، فيروي قائلاً: «لم نتوقع أن نجد ما وجدنا، وما اعترانا من أحاسيس ونحن نسير بين خرائب البيوت، للأطلال رهبتها، صمتها الصارخ !... أهي مقبرة حية ؟... أم معزوفة صامتة حزينة بين أحضان الطبيعة ؟! حيطان مهدمة، وقناطر وأقواس وأبواب وحجارة مبعثرة، وزوايا غرف ودرجات، أزقة ضيقة، وحشائش يابسة، وأشواك وأشجار... تؤلف كلها جوقة واحدة في صمت المكان، يقودها بنيان شامخ هو بنيان الكنيسة... لم يبق بيت على حاله، كل بيت تهدم، إلا بيت **الله** يحرس المكان ! مررنا بين الحجارة المبعثرة، وبقايا الحيطان، بين الحشائش والأشواك، تحت أشجار منتصبة شعثة الفروع، لم تجد من يقلمها... زرت مع زملائي الفنانين مرة أخرى قرية كفر برعم، تجولت بين خرائب البيوت، أصور أماكن لم أكن صورتها من قبل، فأرى عوالم جديدة فاتتني رؤيتها قبلاً، نسمات باردة خفيفة كانت تسير بي إلى رائحة الحرش المعهود الذي كنا زرناه سابقاً، حيث الملتقى قرب الكنيسة، صمت رهيب يلف المكان مع شمس الغروب، ويبدأ الليل ينشر عباءته القديمة الجديدة... وننظر حولنا لنرى أننا لسنا وحدنا في معبد الطبيعة هذا، فحولنا تنتصب أشباح واضحة هنا ومتلاشية الوضوح هناك، هي بقايا القناطر والحيطان بين الأشجار والخرائب، كأنها هياكل آدمية تحنو على المكان وتحرسه، وربما رأيناها تتحرك مع حلول الظلام... ويأتي صوت الطبيعة على طبيعته، وكأن الدنيا ما زالت على ما هي ولم يتغير شيء، صوت بنات آوى تعزف جوقتها في هذه الجهة، فتجيبها الجوقة الأخرى من جهة أخرى!... ويتدحرج الصوت مردداً الصيحات في الوديان... موسيقى الجبال والأحراش ما زالت كما كانت، ولم يتغير شيء سوى أن هذا المكان لم يعد كما كان»(٢٧).

ومن مكان لجوئهم في قرية الجش، هرع البراعمة إلى تلة تشرف على قريتهم كفر برعم ليشهدوا عملية قتل روح المكان الفلسطيني بيد جبروت العقلية الصهيونية، في محاولة منها لوأد الهوية الفلسطينية وطمس ملامحها، فيروي الأب يوسف سوسان عن ذلك اليوم المشؤوم قائلاً: «في ١٩٥٢/٠٩/١٦م كانت هناك طائرات تجوب سماء كفر برعم... قذفت قنابلها المحرقة والنار تلتهم الأعشاب... يرتفع الدخان كثيفاً... يتعالى صوت

المفرقعات، فتتداعى منازلنا وتصرخ أرواح أجدادنا.... وارباه... وابرعماه، يهرع أهالي كفر برعم المقيمون في الجش إلى تلة تشرف على قريتهم ليشهدوا الجريمة النكراء والفعلة البربرية، فيذرفون الدموع ويصعدون الزفرات»(٢٨).

وهذا ما حدث أيضاً لقرية إقرث، ففي ١٩٥١/١٢/٢٤م، ليلة الميلاد لدى الطائفة المسيحية الكاثوليكية– الطائفة التي ينتمي إليها أهالي القرية – فجر الصهاينة القرية بوساطة الألغام والمدفعيات، ثم قامت الطائرات بقصفها، وقد قامت جرافات الجيش بجرف أغلب معالم القرية باستثناء مبنى الكنيسة الذي بقي مهشماً متصدعاً نتيجة لذلك، وقد كان الهدف من ذلك قتل أمل مهجريها بالعودة (٢٩).

ركز الخطاب الصهيوني المتعلق بملكية الأرض على الادعاء الديني، بينما الفلسطينيون ركزوا في هذه المسألة على العلاقة الطبيعية والعضوية بالأرض، وقد انتبهت العقلية الصهيونية لذلك، ولهذا ركزت على تدمير المظاهر الطبيعية التي تربط الإنسان الفلسطيني بالمكان، حيث جهدت بوتيرة متسارعة خلال أحداث حرب عام ١٩٤٨م وما تلاها على تغييب المشاهد المكانية العالقة بالمخيلة الفلسطينية، أملاً في إحداث حالة من الانفصام بين الإنسان والمكان تؤدي في نهاية المطاف إلى شيوع ثقافة الاغتراب المكاني خاصة بين أبناء جيل ما بعد النكبة، وتنفيذاً لهذه السياسة لم تتوقف الآلة الصهيونية عن اجتثاث كل معلم عربي ينطق بلغة أصحابه، بهدف فصل المكان عن موجوداته، وإمعاناً في تكريس هذه السياسة الهادفة إلى هدم البناء المكاني في مخيلة الإنسان الفلسطيني، وإعدام كل ما يتعلق به من موجودات ورموز، قامت السلطات الإسرائيلية بملاحقة أي رمز مادي له علاقة بالمكان الفلسطيني وعملت على خفره، وفي هذا الشأن يروي مدير عام معهد إميل توما للدراسات الإسرائيلية والفلسطينية سلمان ناطور المولود في دالية الكرمل (قضاء حيفا) عام ١٩٤٩م قائلاً: «في منتصف ليلة من ليالي أيلول ١٩٧٧م حرقت كل سجائري، ولم يكن من عادتي أن أبقي سيجارة لقهوة الصباح، لكنني فعلتها في تلك الليلة، وبعد أن أقفلت الباب واسترخيت على سريري، وما كدت أغمض عيني حتى سمعت طرقاً شديداً على الباب، وهرجاً ووقع خطى أيقظ طفلي وزوجتي، فقاموا مذعورين وأنا معهم، ولما فتحت الباب وإذا بمجموعة من الرجال بلباس مدني وقد تجمعوا في المدخل، وقال أولهم: جئنا لنفتش البيت، وناولني ورقة لم أقرأها، ودخلوا بقوة وانتشروا في أركان البيت وفتشوا في المكتبة وفي الخزائن وفي الثلاجة، وتحت الفراش... كان على طاولتي مفتاح كبير لبوابة قديمة ورثته عن جدي، حين كنت أتأمل فيه وأقرأه، كان يعيدني إلى تلك الأيام وذلك الجيل، وإلى الحالة الفلسطينية التي تجمعني بهذا الجيل المعذب، ويبدو أن ضابط العملية بذكائه المخابراتي الخارق أدرك عمق العلاقة بيني وبين هذا المفتاح، فبدأ يحقق: من أين لك هذا

المفتاح؟ وأمرني أن آخذه إلى البوابة الكبيرة، ولما أقنعته أن مثل هذه البوابات كانت في زمن البيوت الحجرية الكبيرة التي هدمتها جرافاتهم، عندها سحبه بعصبية وقال: سيكون شهادة ضدك، وأمرني أن أصعد إلى السيارة، واختفى المفتاح»(٣٠).

ولكن رغم هذه السياسة الطافحة بالعداء والعدوان ضد المكان الفلسطيني، بقيت ذاكرة هذا المكان قوية لا تشيخ، ومتجذرة بعمق في اللاوعينا الذي يبلور بقوة أبعد ذكرياتنا(٣١)، فقد كان أبناء جيل النكبة يشتمون رائحة أماكن طفولتهم، ويتحسسون ملامح أماكن صباهم بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض قراهم وبلداتهم التي هجروا منها قسراً أثناء حرب عام ١٩٤٨م. فيروي الحاج يوسف الشاعر عندما عاد لزيارة بلدته قيسارية قرب عكا قائلاً:» لقد وجدتها مدينة غير التي عرفت، وغير التي نشأت فيها، تجولنا في الشوارع، لقد تغيرت معالمها... كنت أشتم رائحة الطفولة والأصدقاء الذين فرقتهم النكبة في كل ركن في المدينة، هنا كنت أسهر مع سعيد وراجح، وهناك كنا نلهو ونتحدث عن المستقبل»(٣٢).

ويروي عيسى العزة المفوض العام للتوجيه السياسي والوطني في محافظة بيت لحم عندما زار قريته تل الصافي (قضاء الخليل) في تشرين الأول من عام ٢٠٠٤م قائلاً:» طلبت من أحدهم أن يأخذني إلى بيتي المهدم في قريتي حيث مسقط رأسي وطاوعني بعد إلحاح... وصلت بيتي وبرفقتي أحد أقربائي... أخذت أستعيد معالم البيت من جديد، وعرفته من نخلة تنتصب في ساحة الدار، ومطمورة مدفونة إلى جانبها... وبعض الحجارة المتناثرة هنا وهناك»(٣٣).

وفي هذا السياق يروي خالد منصور من قرية أم الزينات (قضاء حيفا) قائلاً: «دخلتها أول مرة بصحبة أبي الذي عرفني بكل معالمها، بآبار مياهها العذبة وعيون مائها، وأخذني إلى آثارها القديمة ليؤكد لي عراقتها وجذورها الضاربة في عمق التاريخ، فعرفني بمغر النواميس ومغارة المعلقة، وأصر على أن أطأ بقدمي معظم قطع الأراضي التي كان يحفظ أسماءها كما يحفظ أسماءنا نحن أبناءه... عرفني على مواقع البيادر الغرابا والبيادر الشراقا حيث كانت تقام الأعراس وليالي السمر والأفراح، وعرفني على موقع الجامع والمدرسة والمقبرتين القديمة والحديثة، وعرفني على مواقع المنازل، فقال لي: هذا موقع بيتنا القديم، وهذا موقع دار بشر، وهذه حارة المراح... ولم ينس دار أبو حنا النصراني الوحيد الذي كان يسكن في القرية، وكان يعمل اسكافياً وخياطاً وصاحب دكان... وكان أبي يحب أم الزينات ويعشق أرضها وسكانها حباً لم أر شبيهاً له طيلة حياتي، لدرجة أنه وفي أثناء سيره بين أطلالها، كان يتعرف على البيوت التي أزالها اليهود نهائياً من على الأرض... كان يتعرف عليها من أشجار الزيتون والتين والرمان والصبر التي ما زالت باقية حتى اليوم تنمو

وتعيش في مكانها صامدة رغم كل محاولات الصهاينة الغاصبين لطمس كل شيء عربي في البلدة... وعند كل بيت كان أبي يتوقف ليتذكر ويتنهد ويقول: هذا بيت فلان الذي كانت زوجته فلانة وأبناؤه فلان وفلان، وهم يعيشون الآن في البلد الفلاني»(٣٤).

ومما يروى في هذا الصدد أيضاً ما أفاد به فيصل حوراني عند عودته إلى أرض الوطن سنة ١٩٩٥م، حيث يقول: «وحين عودتي إلى أرض الوطن اجتذب السائق انتباهي إلى لوحة كتب عليها (المسمية)... أشار السائق إلى اللوحة، أما أنا فحضرني ما كان قائماً في ذلك المكان عند تقاطع الطريقين: محطة القطارات وحانوت ساريس البقال الذي كان يعد أشهى الفلافل، وعبثنا نحن تلاميذ المدرسة في هذا المكان الذي كنا نرتاده كل يوم... ومع أن السائق أطلق لسيارته العنان، فإن أوجاعي لم تخف، فذاكرتي تختزن أسماء المواقع التي توالت، وتطفح بذكرياتي فيها ومعلومات عنها وعمَّا حل بها على يد غاصبها»(٣٥).

كانت العقلية الصهيونية تعرف جيداً مدى ارتباط الإنسان الفلسطيني بأرضه، وتعي جوهر علاقته بالمكان، ولذلك لجأت إلى أشد الإجراءات فتكاً ضد الإنسان الفلسطيني لاقتلاعه من أرضه، وإجباره على ترك مكانه، فمنذ صدور قرار التقسيم، وحتى انتهاء حرب عام ١٩٤٨م، قامت العصابات الصهيونية بارتكاب الكثير من الجرائم والمجازر ضد المدنيين العرب العزل، بهدف بث الرعب بينهم، وترحيلهم عن أرضهم، وتدمير قراهم وبلداتهم.

إن المجازر الصهيونية رغم بشاعتها عملت على امتزاج الإنسان الفلسطيني بالمكان، فبدت رابطة الدم توثق علاقة الإنسان بالمكان في هذه البقعة الجغرافية، كذلك فإن عوالم المكان الفلسطيني حضرت عمليات القتل والذبح، فرصدت كثيراً من المشاهد لتبقى في الذاكرة شاهدة على أبوة الإنسان الفلسطيني لهذه الأرض وأمومته لهذا المكان... فهنا قرب المسجد قتلت طفلة بريئة، وهناك عند شاطئ البحر بقرت بطن امرأة حامل، وهنا على امتداد جدران البيوت الطينية أعدمت مجموعة من الشبان، وهناك بين حقول القمح تبعثرت أشلاء شيخ كهل، وهنا داخل هذا الكهف قضي على عائلة لاجئة، وهناك تحت الشجرة أعدم مقاتل جريح، وتتوافر شهادات عديدة تكشف أن ذاكرة المكان ساهمت بشكل فاعل في سرد قصص القتل والذبح التي تعرض لها أهالي القرى والبلدات الفلسطينية خلال أحداث حرب عام ١٩٤٨م.

ونذكر من هذه الشهادات على سبيل المثال لا الحصر رواية رزق عشماوي عن مذبحة الطنطورة حيث كان عمره آنذاك (١٣) عاماً، ويشير فيها إلى أن عدداً من شباب القرية قد أعدموا في باحة قريبة من مسجد القرية، فيقول:» على مسافة قريبة من مسجد القرية كانت ثمة باحة، بالقرب منها أوقفوا الشبان على امتداد جدران البيوت... كان ثمة طابور يضم

٢٥ شخصاً صفت خلفهم أيضاً فتيات، وقف في مقابلهم حوالي عشرة أو إثنى عشر جندياً، وعندئذ قام هؤلاء الجنود وبكل بساطة بإطلاق النار على الشبان الذين خروا قتلى في المكان... أما الفتيات فسمح لهن حسب أوامر الجنود بالذهاب، ليمضين في طريقهن»(٣٦). ويروي يوسف إبراهيم عبد الدين من قرية الدوايمة، ويسكن الآن في مخيم الجلزون بأنه قد أنجز الصهاينة فصلاً من فصول المجزرة التي حلت بقريته في مسجد الدراويش، فيقول: «في العاشرة والنصف من صباح يوم السبت ٢٩ تشرين الأول ١٩٤٨م مرت المصفحات بالقرب من مسجد الدراويش، وكان بداخله (٧٥) مسناً، فقاموا بقتلهم جميعاً بالمدافع الرشاشة»(٣٧).

وفي هذا السياق أيضاً فإن ذاكرة جامع دهمش ما زالت تنبض بألم المجزرة التي حلت في رحابه، فيروي أبو عمر اللداوي ابن الثامنة عشر عاماً آنذاك وهو من مدينة اللد، ويقيم الآن في مخيم عسكر بنابلس قائلاً: «اليهود فاتوا على جامع دهمش وقتلوا ثمانين شخصاً»(٣٨). ولا تزال البيادر في قرية الطنطورة تذكر ذاك الطفل الذي قضى صريعاً على يد العصابات الصهيونية، فقد روى يهودي عجوز كان قد اشترك في احتلال قرية الطنطورة الساحلية التي اقترف المحتلون فيها مذبحة بشعة، أن من بين الذين جمعهم الجنود على البيادر كان طفلاً قدمت له أمه قطعة خبز مدهونة بلبنة، ما أن هم بأكلها حتى صوب أحد الجنود الرصاصة نحو قطعة الخبز واخترقت الرصاصة قطعة الخبز، ودخلت في فمه وخرجت من مؤخرة رأسه»(٣٩). ولعل الكهوف المحيطة بقرية لوبيا ما زالت تذكر مشاهد اللجوء أثناء الهروب من قصف الطائرات والمدفعية، فتروي أم عارف العائدي (مواليد ١٩٣٤م) من قرية لوبيا حول ذلك قائلةً: «اشتد الحصار على بلدتنا من قبل اليهود الصهاينة المدعومين من جيش الإنجليز، وبعدها تم قصفنا بالطائرات ومن ثم احتمينا بالمغارات المحيطة بالبلدة، وقد أصيب العديد من أهلها أثناء القصف بالطائرات والمدفعية، وبعد انتهاء المعركة وسقوط عدد من الشهداء خرجنا»(٤٠).

وفي هذا السياق أيضاً فإن كثيراً من الروايات تشير إلى أن الإنسان الفلسطيني كان كثيراً ما يلجأ إلى البيارات للاحتماء بين أشجار البرتقال والزيتون والتين من القصف المدفعي وقصف الطائرات، فتروي أم عفيف (٨٣عاماً) من قرية سحماتا قائلةً: «إنه في يوم ٢٩ تشرين الأول ١٩٤٨م برمت الطيارة حوالي البلد... صارت الناس تركض وين الحواكير ووين الزيتون... تصاوب عمي يوسف أبو عواد... مات عمها لأمي...كان قاعد تحت التينه... لما شفنا هاي الشوفه خبينا أغراضنا وصارت الناس تركض وتتخبا بأرض الزيتون»(٤١).

لقد سجلت ذاكرة المكان الفلسطيني مشاهد النزوح والتشرد الجماعي، وصور الاقتلاع والتهجير القسري، فتكشفت مظاهر استلاب الروح من الجسد... فهؤلاء تركوا محاصيلهم قبل أن يبدأوا بجنيها، وأولئك هربوا قبل أن يكملوا قطاف ثمارهم، وهذا ترك موقده مشتعلاً ولم يجد متسعاً للشعور بدفئه، وذاك ترك بيته دون أن يغلقه على ذكريات عمره، وآخر ترك دوابه دون مأوى ولا طعام... لقد هجروا الصباحات الباكرة الندية دون أن يسمح لهم بالإطلالة من على شرفاتها، وفارقوا المساءات الدافئة العاطرة دون أن يسمح لهم بوداع عوالمها. «فلم يعرف العرب عن جهل أو تجاهل ماذا حدث للوطن الضائع، ماذا حدث لمئات القرى والمدن، ماذا حدث لتلك البيوت التي هجرت تحت القصف وترويع المذابح، وبها الصور على الحائط، والطعام لا يزال ساخناً في المطبخ، والفراش المبعثر، والزهور التي تركت دون أن تسقى، القطة أو الكلب الذي بقي دون صاحبه، ماذا حدث للمساحات الشاسعة من الأراضي المزروعة، للمحصول الذي نضج ولم يحصده صاحبه، لبساتين البرتقال، والزيتون الذي ينتظر القطاف، لآلاف الماشية والأغنام التي تركت هائمة دون ماء تشرب أو طعام تأكل، خرج الناس وفي قلوبهم نكبة النفس، وتركوا خلفهم نكبة المكان»(٤٢).

ولعل ما كتبه يوسف فايتز– مسئول الأراضي في الصندوق القومي اليهودي وأول رئيس للجنة الترانسفير– في مذكراته بعد أن أخذ يجول في القرى المهجورة التي طرد أهلها بالسلاح في جنح الظلام، يرسم لوحةً لا مثيل لها لنكبة المكان الفلسطيني، وقد جاءت هذه اللوحة مخضبةً بألوان من الحقد والكراهية، فيقول: «وتعرج الطريق بين الجبال

وبدا لي بهاء الجليل في أروع صورة،
في ابتسامته القرمزية،
لم أره من قبل مثل ذلك.
كان مفعماً بالحياة
قطعان الماشية تصعد الجبال
وتهبط الوديان، أجراسها تدق،
والرعاة خلفها،
يغنون ويصيحون كشخوص
من الماضي السحيق.
والآن ساد صمت رهيب على هذه الجبال، تنبعث
خيوطه من قرية خالية.
قرية خالية! ما أفظع هذا! حياة تجمدت،
تحولت إلى همسات في الريح،

إلى طابون انطفأت ناره،
إلى مرآه مكسورة،
إلى كومة من التين المجفف في الشمس،
إلى كلب نحيل يمشي وحيداً في الطرقات
الخالية...
وفجأة انبعث من داخلي شعور عميق الجذور،
الشعور بالنصر،
الشعور بالسيطرة،
الشعور بالانتقام.
لقد رأيت هذه البيوت الخالية خير مكان
لاستقبال إخوتي
اليهود الذين تشردوا من جيل إلى جيل»(٤٣).

فعندما أرغم الإنسان الفلسطيني على الهجرة والرحيل لم تهاجر معه أملاكه ومقتنياته، حيث بقيت وراءه تحرس المكان لحين عودته التي لن تطول حسب اعتقاده، حيث يظهر من روايات اللاجئين الفلسطينيين أن غالبيتهم قد أخذوا على حين غرة بحرب عام ١٩٤٨م رغم أنهم كانوا يتوقعونها، وعندما انفجرت الحرب حاول بعضهم التمسك ببعض الحاجيات الأكثر أهمية كالنقود ومستندات الأرض ومفتاح المنزل، ولكن معظمهم أغلقوا بيوتهم على ما فيها، وهاموا على وجوههم لا يلوون على شيء، ولا يعرفون حتى إلى أين يتجهون، فلم تكن لديهم فكرة عن المكان الذي سيذهبون إليه، ولكن كانت نيتهم تتجه نحو الهروب من ساحة القتال مع البقاء قريباً من قراهم ومدنهم بقدر المستطاع منتظرين فرصة مناسبة للعودة بعد انتهاء الحرب(٤٤). فتروي مريم سليمان مصلح (٦٥عاماً)، وهي تسترجع ما احتفظت به ذاكرتها حول الأجواء التي سادت عقب المجزرة التي شهدتها قريتها دير طريف قائلة:» خرجنا من قريتنا لا نحمل شيئاً سوى سطل من العجين وغطاء بسيط، وتركنا الحمام والدجاج وكل شيء وراءنا»(٤٥). وهذا ما حدث أيضاً مع سكان قرية ترشيحا، فتروي غوسطة دكور قائلةً:» إحنا هربنا بعد أول غارة على ترشيحا، لما قررنا نطلع كان عندي جهاز كبير، ومش عارفه شو بدي آخذ معي، بالآخر ما أخذنا إشي، أهم إشي نسلم بروحنا، أمي عملتلنا أكل، أخذت معها كيس لبنة، ومرطبان الجبنة حطته بكيس، وأخذت زعتر وخبز، وإحنا حملنا شراشف ومخدات»(٤٦).

وتصف جميلة مطاحن من زرعين التي كانت في السادسة عشرة من عمرها عندما غادرت القرية ليلة زفافها، فتقول: «طردونا والحنا بعده على أيدي، وخزانتي مليانة»(٤٧). ويقول جودت علي أبو سرية من الشيخ مونس، وقد كان عمره(٦) سنوات وقت الرحيل: «لم نأخذ معنا أي شيء عندما هاجرنا عام ١٩٤٨م، لم نحمل لا طناجر ولا حرامات ولا كاسات، كنا متأكدين إنّه رح نرجع بعد الحرب»(٤٨). وتذكر أم عيسى أبو سرية من قرية الشيخ مونس (قضاء يافا) تلك الأيام العصيبة قائلة: «بكيناش عارفين أنه بدنا نطلع ومنرجعش، قلنا بنبقى جمعة زمان وبنرجع، محملناش الكواشين تاعة الطابو، دفناهم بالأرض لأنا راجعين بعد جمعة»(٤٩).

لقد رصدت ذاكرة المكان الفلسطيني صور الهروب والرحيل الجماعي لأهالي القرى والبلدات الفلسطينية، فمن هذا الوادي مروا هاربين، وعلى هذا الجبل تسلقوا خائفين، وإلى أطراف تلك البلدة لجأوا مذعورين، وفي تلك المغارة اختبئوا مرعوبين... وهناك العديد من الشهادات التي يشير فيها أصحابها إلى مواقف مروعة تمكنوا من مشاهدتها أثناء حالات الهروب والتشرد الجماعي، فيروي الأب يوسف سوسان واصفاً مشهد قوافل المشردين في قرية كفر برعم، فيقول: «ما زالت قوافل النازحين طوال تشرين الأول ١٩٤٨م في ذاكرة الصغار وكبار أبناء كفر برعم، مشاهد مؤلمة حزينة، أطفال نساء، وشيوخ وكهول، تقلهم سيارات سيرها الخوف، وقادها الفزع، وقوافل أخرى تسير خلف دواب كلفت نقل ما خف من متاع، صراخ أطفال فقدوا الأمن، أو عضهم الجوع، وربما لسعهم البرد، ونشيج أمهات يبكين سوء المصير... مشهد مروع وكلام له في النفوس وقع وأثر»(٥٠).

وفي هذا السياق أيضاً يروي أستاذ علم الاجتماع والأنثربولوجيا في جامعة بيرزيت الدكتور شريف كناعنة المولود في قرية عرابة البطوف بالجليل عام ١٩٣٦م قائلاً: «لقد كنت طفلاً في الثانية عشر في ذلك الحين، وما زلت أذكر كم كنت خائفاً عندما رأيت عشرات الآلاف من الرجال والنساء والأطفال، والكلاب والحمير والخيول والأبقار، وفي بعض الأحيان عدد من الفراخ الصاخبة مربوطة من أرجلها ومحمولة على رأس امرأة أو على ظهر إحدى البهائم... كل هذا الحشد من البشر والحيوانات يهرول عبر قريتنا في حالة من الهلع والفوضى والارتباك... كان هؤلاء أهل القرى المحيطة بالناصرة وطبريا في طريق نزوحهم شمالاً نحو الحدود اللبنانية»(٥١). وأما عودة الرنتيسي مدير بيت الأيتام التابع للطائفة البروتستانتية في رام الله و المولود في مدينة اللد عام ١٩٣٧م فيستذكر من مشهد اللجوء موقفاً أليماً، حيث يقول:«... أطل علينا اليوم التالي بالمزيد من تجارب الرعب والخوف... فعلى طرف الطريق كان طفل صغير يرضع من ثدي أمه بنهم، كانت الأم ممددة على الأرض دون حياة... وعلى طول الطريق تناثرت أجساد أشخاص تعبوا من المسير... وآخرين ماتوا

من حر الصيف اللاهب... الكثير من النساء الحوامل فقدن أجنتهن خلال الرحلة، وأخريات فقدن أطفالهن بين أيديهن»(٥٢). وتصف نجية أسعد سليمان مشهداً آخراً من مشاهد الرحيل والهروب الجماعي في قرية سحماتا، فتقول: «الناس طلعت مثل المجنونة... إللي مركب أولاده على كتفه، وإللي على ظهره... شو بدها تحمل العالم لحتى تحمل... البيوت مليانة كانت... الناس صارت بالطريق ترمي أغراضها على الأرض»(٥٣).

لقد تحولت موجودات ومكونات المكان الفلسطيني أثناء أحداث النكبة عام ١٩٤٨م إلى مرموزات وأيقونات بفعل صمود الإنسان الفلسطيني، فتحولت باحاته إلى ساحات نضالية، وحقوله إلى مخابئ للثوار، وجباله إلى قلاع للفداء، وأنهاره إلى دماء للتضحية، وأشجاره إلى صروح للكرامة، فكل جزء وركن وزاوية في المكان الفلسطيني شهد صورة من صور التضحية والفداء، ومشهد من مشاهد التصاق الإنسان بأرضه وحماية المكان لأهله، فتقول رابعة حسين العسعس (٦٨عاماً) من بلدة لفتا (قضاء القدس) وسكان عمان حالياً:» كان الثوار من أبناء البلد يتصدون لمجموعات الهاغاناة المتسللة إلى أطراف القرية بين أشجار الصبار» (٥٤). وتقول رحمة داود عبد الرحمن (٧٢عاماً) من المزيرعة (قضاء اللد): «أن محمد صلاح قد جرح في المعركة ودخل ينزف وحيداً في حقل قمح قريب يكتم أنفاسه خوفاً من أن يكتشفوا وجوده»(٥٥). وفي هذا السياق أيضاً يروي الحاج نمر حسن العائدي (مواليد ١٩١٤م) من قرية لوبيا قائلاً: «حين هاجمنا اليهود أوقعنا بهم خسائر بشرية فادحة... وأذكر يومها كنت مع صديقي الحاج حسني نكمن عند كرم أبو لبدة... وكانت سنابل القمح تغطينا... وكنا قد حملنا شهداءنا من أرض المعركة ودفناهم في مغارة البلد»(٥٦).

ذاكرة المكان لدى الإنسان الفلسطيني بعد النكبة:

إن جرح النكبة كان أكثر إيلاماً لدى الإنسان الفلسطيني من أي حدث آخر، فقد أصبح يحمل معه المكان بمكنوناته وذكرياته أينما رحل وحيثما حل، بل أن تقاسيم المكان وموجوداته غدت الزاد اليومي للإنسان الفلسطيني، فتارة تراه ينظم من أنفاس المكان مرثية ليتباكى فيها على أيام الطفولة والصبا، وتارة يشيد من حجارته ملجأً ليأوي إليه كلما اشتدت عليه وطأة الحياة، وتارة ينسج من ذكرياته حكاية علها تشيع الدفء بين أبنائه وأحفاده، فالمكان في أعقاب النكبة أصبح يشكل روحاً للخلق والإبداع لدى الإنسان الفلسطيني، وخاصة لدى طبقة الأدباء، لدرجة أن المكان في كثير من الأحيان كان هو العامل المحرك لإيقاعات نصوصهم الأدبية، بل يشارك بقوة في توجيه الأحداث والشخصيات الروائية في أعمالهم، ومن هنا كانت أغلب إبداعاتهم تلح على إحضار المكان إلى رحابها، لدرجة أن رائحة المكان كانت تغطي مساحات واسعة من أعمالهم الروائية

والشعرية والفنية، ولعل هذا الاهتمام الواعي بالمكان من قبل الأدباء الفلسطينيين يعبر من جهة عن مدى ألمهم وحزنهم على فقدان الوطن وضياع ذكريات المكان، ومن جهة أخرى يظهر إصرارهم على العودة إليه مهما طال الزمان.

إن الكتابة في الوضع الفلسطيني تعدُّ امتداداً للذات، وهذه الذات تسعى دائماً إلى أن تجعل من نتاجها الأدبي والفني حارساً أميناً للمكان الفلسطيني المسلوب، ففي حوار مع الشاعر الفلسطيني إيهاب بسيسو المقيم في لندن يقول: «أكتب من أجل حبة القمح التي سرقت، ومن أجل الموجة التي أعتقلها القراصنة، علني في هذا أحافظ على تماسك الذاكرة أمام الريح»(٥٧). وهذا ما عبر عنه أيضاً الروائي الفلسطيني عدنان كنفاني المقيم حالياً في سوريا، فيقول: «لم يكن هاجسي إلى أي حد وفقت في محاولاتي للكتابة عن فلسطين، بل هي أواصر ما زالت تشدني إلى المكان، إلى وطن أنتمي إليه، إلى بيئة وتراث وأصالة، إلى جواز سفر، إلى ذاكرة ما زالت تنبض وتحرض فينا البحث عن الانتماء، إلى طفولة ضاعت في متاهات الشتات، إنها تلك الغربة التي تذبح الوطن على مرمى النظر، إنها فلسطين بكل هذه الطيوف... وطني الذي أنتمي إليه... فالمكان هاجسي في كل ما أكتب، ربما ذلك الطيف الذي مازال راسياً في قاع ذاكرتي يشدني دائماً إلى تكريس المكان»(٥٨). ومن هنا فإن ذاكرة المكان أصبحت جزءاً من ذاكرة الثقافة الفلسطينية، إذ يقول الشاعر الفلسطيني محمود درويش: «أي نص شعري غير محمول على تاريخ أو مكان يكون نصاً مداناً، لابد للنص الشعري أن يكون محمولاً على تاريخ أو مكان»(٥٩).

إن نكبة فقدان المكان أحدثت جرحاً غائراً لدى الإنسان الفلسطيني، وهذا الجرح توغل بعيداً في مملكة الشعراء والرواة والفنانين، فظهروا بأنهم أكثر الناس نفياً وغربة، كونهم يجهدون دائماً لتفريغ شحنات أحاسيسهم وانفعالاتهم على بياض الصفحات، سعياً منهم لتحقيق توازن نفسي من خلال تحويل العصاب الإيجابي لديهم إلى إبداع فني، ولذلك نجدهم أكثر الناس تعلقاً بالأمكنة ورموزها، فكثيراً ما ينشغلون في مسألة تفجير طاقة المكان الساكنة، أي إخراجها من عاديتها إلى شاعريتها، والتسامي بروحها حيث تكمن في نسيجها القيم الخالدة، وهم بهذا العمل يكونون من أكثر الناس تحريضاً للأماكن الساكنة، ابتغاء بعث الجدوى من الخواء، والضوء من القتامة، والنار من الجليد، والعنقاء من الرماد، ولعل هذا الفكر قد شكل عندهم نواظم مشتركة جمعت بين أفكارهم وصبغت معظم أعمالهم، إذ نجد أن المكان قد انزاح في أعمالهم من استخدامه المألوف في النصوص الإبداعية باعتباره مجرد جغرافية للمشاهد السردية يتحرك بين أشيائها الإنسان ضمن علاقة ساكنة وسلبية لا تعني شيئاً سوى وظيفتها، ونهضت علاقة أكثر عمقاً بين الإنسان والمكان، علاقة نفسية ووجودية وتاريخية، علاقة تؤسس للامركزية الإنسان، حيث لم يعد الإنسان هو سيد الأشياء، بل إن للأشياء فعلها الحيوي وإشاراتها النابضة بالمعنى، وبذلك

فإن المكان لم يعد يصوغه الكاتب، بل إن المكان بدوره أصبح يمارس صياغة شخصية الكاتب. ولعل تجربة الشاعر الفلسطيني محمود درويش التي تقوم أساساً على المكان فيها ما يشير إلى ذلك، فيقول: «موضوعي هو البحث عن المكان أو إعادة تركيب المكان الذي فكك، وإعادة تركيب التاريخ الذي فكك هو أيضاً، وإعادة الجغرافية أيضاً، هذا هو موضوعي، وهذا هو الحيز الذي يطغى على لغتي باعتباري فلسطينياً، أنا زمني مفكك، وتاريخي مفكك، وجغرافيتي مفككة، فأحاول أن أعيد بناءها من خلال اللغة»(٦٠).

الأدب هو ابن المكان، والمكان الفلسطيني مسلوب، ولذلك فإن أغلب النصوص الأدبية تحلقت حول المقاومة، على اعتبار أن الأدب يجب أن يكون مناضلاً، ومما لاشك فيه أن الشعر الفلسطيني تمتع بقدرة وطنية جعلت منه أداة من أدوات المقاومة لتحرير المكان المسلوب، ووسيلة من وسائل الحفاظ على الهوية والذاكرة الوطنية، حتى يمكن القول: إن بندقية المقاوم تقاطعت مع قصيدة الشاعر في كثير من الأحيان، فالشعر التحم بالمعاناة، فقد هبط إلى أزقة المخيمات، واتخذ موقعه خلف أكياس الرمل إلى جانب المقاتلين، ومشى في مقدمة الجنازات، وذرف الدموع على فراق الأحبة، وصرخ أيضاً في وجه الغزاة، ورجمهم بالكلمات الغاضبة، وحمل جرح المصابين ودماء الشهداء إلى فضاء الأوراق، ولذلك فإن الشعر الفلسطيني هو بوصلة الاتجاه نحو الوطن المحتل(٦١). فعندما أقامت الشاعرة فدوى طوقان أمسية شعرية في بيت جالا، أثارت ضجة وصلت إلى وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك موشيه ديان الذي حذر من تكرار هذه الأمسية لما تفعله من تهيج وإثارة، ثم وصف الشاعرة بقوله: تكفي قصيدة واحدة من قصائدها لخلق عشرة من رجال المقاومة(٦٢).

إن حالة استلاب المكان التي شعر بها الإنسان الفلسطيني، ومدى الحسرة التي أصابت الذات حين اقتلعت من جذورها، جعلت الإنسان الفلسطيني يعيش في غربة مكانية، ولذلك نجده ينزع دائماً إلى محاولة الإمساك بخيط يوهم بالمكان أو يوحي به طالما أن المكان المرجو خارج المتاح، لأن الإحساس بفقد المكان الأصل يدفع إلى محاولة الاستئثار بأقصى مكان يمكن أن تدركه المعرفة لتعويض هذا الفقد، ومن هنا فإن المكان قادر على التشكل في أي لحظة، استجابة لحالة النفي التي يتعرض لها المكان الأصل داخل الذهن الإبداعي، وبالتالي أصبح اللجوء إلى البديل (المكان المتخيل) هو وسيلة نضالية لجعل الحياة ممكنة والكتابة ذات جدوى(٦٣). ويتكشف الإحساس العالي بفقد المكان لدى الإنسان الفلسطيني عن شهوة شرسة للتملك، وهذه الشهوة تمثل شبكة من المرادات المكانية المؤلفة لوطن محتمل عبر عنها الشاعر الفلسطيني محمد القيسي بقوله: «أريد شوارع كثيرة، ومقاه بلا عدد... وأريد مدناً كافية لرغباتي، وبلاد تتشابك طرقاتها وأهواؤها... وأريد وجوهاً متناثرة في الشرفات والمكاتب، بحاراً كثيرة وأنهاراً أريد...»(٦٤).

إن غالبية أبناء الشعب الفلسطيني يعيشون في المنفى، وبالتالي فإن الذاكرة الوطنية لا تستطيع أن تحرر نفسها من ضغط ثقافة المنفى، إذ أصبح المنفى من مكونات الذاكرة الثقافية (٦٥)، والمنفيّ هو أكثر الناس تعلقاً بالأمكنة، وفي هذا المقام ليس هناك من لوحة أدبية يمكنها أن تعبر عن هذا الشيء أكثر مما كتبه فيصل حوراني في هذا الشأن، فيقول:» أمضيت عمري في الحنين إلى أم ووطن أقصيت عنهما، أدرك بالعقل أن الوطن هو مثل أي وطن، إلا أن الحنين الذي ألهبه الحرمان المتصل وغذاه، أنشأ في الروح وطناً هو الأعظم والأجمل بين الأوطان»(٦٦). فالإنسان الفلسطيني يحمل المكان في مخيلته بصفة دائمة كونه يعيش حالة من اليتم المكاني، وهذا الوضع يمثل حالة جمعية لجيل كامل عاش سني التشرد والضياع (٦٧). وهو ما عبر عنه فيصل حوراني بقوله: «نقلت وطني معي كلما تنقلت، لم أعش في الغربة دون رفيق، فقد ظل المتوطن في روحي هو رفيقي الدائم» (٦٨). ولعل ثقافة النفي والاغتراب هذه دفعت بطبقة الأدباء إلى قراءة المكان قراءة إبداعية بهدف العمل على إعادة تشييد البناء المكاني داخل النصوص الأدبية، فنجدهم يحرضون الموجودات المكانية على التحرك من سكونها، ويقومون بعملية إحياء للعلاقات المكانية من جديد، وكأنهم بذلك يعيدون نتاج المكان في مخيلتهم، وهكذا فإن الذات الفلسطينية المبدعة وجدت في المكان مصدراً خصباً للإلهام، ونظرت إليه على أنه بحيرة بركانية تقذف من بواطنها المعاني.

إن صور التشرد والاغتراب وعذابات المنفى واللجوء ولعنات الغياب عن المكان ظلت تلاحق الإنسان الفلسطيني في أماكن لجوئه، فلا ينسى صور المرافئ والمعابر، ولا عذابات الوحدة وبرودة الليل، حتى الكتابة في بلاد الشتات واللجوء أصبحت ذات طعم خاص، فقد أسست لعلاقة من نوع آخر مع المكان، حيث أصبح للغيمة معنى، وللموجة معنى آخر، وللطرق وللأشجار وللطيور والنوارس معان مجازية، يحاول الشاعر من خلالها إدخال الوطن إلى تلك التفاصيل المختلفة بشكل يجعل الكتابة حالة مستمرة من القلق والحلم والانتظار على حد سواء، بمعنى آخر كأنك تحاول أن تشق في جدار المنفى نافذة تطل منها على الوطن بمدنه وأشجاره وبحره وتلاله، وجرحه وعذابه أيضاً، كأنك تحاول معايشة اليومي بتفاصيله الدقيقة، لتلغي حالة الغياب، ولو بشكل مؤقت على الأوراق، فتترك لرغبتك العنان في أن تتجول على الشاطئ في غزة، وتتسلق التلال في رام الله، وتنام في القدس، وتستيقظ في الخليل، وتركض من القذائف، وتحمل الجرحى إلى سيارات الإسعاف، وتشرب كأساً مع المقاتلين خلف أكياس الرمل، أو فنجاناً من القهوة مع الجدات على الشرفات العتيقة، وهكذا تجد بأن الوطن يدخل بعفويته إلى عمق تفاصيل النص(٦٩).

إن حالة الاغتراب والنفي هذه وما نجم عنها من حالة استنفار للبحث عن مكان مسلوب، امتدت لتطال أعمال أهل الفن ورسوماتهم، فقد ركز الفنانون الفلسطينيون على تصوير المشهد المكاني في الريف الفلسطيني، حيث استخدموا ألوانا مناسبة لتشكيل ملامح هذا الريف، وإبراز مواطن الجمال في طبيعته، كذلك استخدموا مواد طبيعية من البيئة الفلسطينية كمؤشر على المكان وعلى ارتباطهم العميق به، كالصلصال والعشب والتراب، وذلك لتجسيد مشاهد قطف الزيتون وجني الحصاد، ولعل هذه الأعمال تهدف إلى خلق نوع من الفن يسعى إلى تعزيز خطاب المكان والانتماء إليه في ظل حالة الاغتراب والتشرد، فالفنان الفلسطيني ناصر صومي الذي يعيش في باريس استخدم قطعاً من برتقال يافا في تكوين لوحاته الفنية على اعتبار أن الأشياء لها قيمتها في وضعيتها الرمزية(٧٠).

أما الفنان التشكيلي الفلسطيني إبراهيم هزيمة المقيم حالياً في مدينة برلين والمولود في مدينة عكا عام ١٩٣٣م «فقد كانت مدينة عكا في قمرها وبحرها وبيوتها العامرة وناسها الطيبين هي ساحة فنه وميدانه التعبيري البصري والوجودي، فمدينة عكا كانت حاضرة بقوة في لوحاته التصويرية، لا تغادر ذاكرته الحافظة لتجليات وطن جميل مسكون بأنفاس الحياة الحرة الكريمة المفتوحة على قرص الشمس وملونات الأمل المعشبة بشخوص النسوة الحسان اللواتي يحملن خيرات الأرض والبلاد»(٧١). وهذه أيضاً كانت حال الفنان التشكيلي الفلسطيني إبراهيم غنام المقيم حالياً في بيروت والمولود في بلدة الياجور (قضاء حيفا) عام ١٩٣٠م، «حيث عشق الطبيعة الفلسطينية وتغنى بالأرض ومواسم الحقول والمناسبات الشعبية حتى لقبه الناقد الروسي ناتولي بغدانوف بلقب (مغني الأرض وفنان الضيعة الفلسطينية)، فقد جاءت لوحاته منحازة تماماً لذاكرة الأمكنة الفلسطينية، وناسها الطيبين، وطبيعتها الساحرة، ومواسم الخير والعطاء، والاحتفالات الشعبية التي لم تفارق مخيلته لحظة واحدة، فاللوحات الدافقة برائحة الأرض وعبق الليمون والريحان والزعتر سكنت ضلوعه وداعبت أحاسيسه وملكت عقله، ويوميات الحصاد الحافلة بجماليات الوطن وعمق الوجود ووهج الأرض أخذت مساحة واسعة من موهبته، فوثق بذلك تاريخ شعب وحفظ ذاكرة وطن من خلال خطوط وملونات جامعة لجماليات الأرض والإنسان الفلسطيني بطيبته وإنسانيته، فالأرض ميدانه الرئيسي وفتنة سرده البصري، لا تغادر ذاكرته وذكرياته عن وطن مستلب مفقود، وقرية فواحة ومعبأة بأنفاس الحنون والصبار والليمون، وكثيراً ما كان الفنان يرقص في حضرة هذه الطبيعة منتشياً على طريقته الخاصة، وذلك عبر الخط واللون وقماش الرسم وأدواته الفنية المتواضعة، بما يمتلك من موهبة فطرية وذاكرة بصرية تتسع لجماليات القرية والوطن وأبعاده الإنسانية والحضارية، حيث الأرض العامرة بمواسم الخير والقطاف والحصاد، المعشبة بسنابل القمح الذهبية التي تحاكي أشعة الشمس وحركة الفلاحات والفلاحين العامرة بالحيوية والنشاط والمسكونة بالألفة والمحبة»(٧٢).

كما أن حالة الاغتراب والنفي وما رافقها من ألم وحسرة على فقد الديار عملت بقوة على ظهور الأمكنة بشكل كثيف بين ثنايا صفحات الرواية الفلسطينية، ففي رواية (عكا والملوك) للروائي الفلسطيني أحمد رفيق عوض، يقول الراوي: «خرجت من القبو لأشاهد نابلس لأول مرة في حياتي، فدهشت لما فيها من أبنية فخمة وشوارع عريضة لامعة نظيفة، كانت المدينة تصعد من الوادي باتجاه الجبلين اللذين يحفان بها من الشمال إلى الجنوب، وهما جبلان عاليان جهمان جليلان يبتعدان عن بعضهما ويقتربان كأنهما يهمان بالعناق ثم يعدلان عن ذلك»(٧٣). وفي رواية (بلاد البحر) رصد أحمد رفيق عوض طبيعة علاقة الإنسان الفلسطيني مع أرضه وخيراتها، فيقول: «أبي الضخم صاحب الصوت العريض يتحول في لحظة إلى طفل كبير سريع الدمعة، سريع الاشتعال والانفعال، يفرح عندما يطعم شجرة لوز، ويسبح باسم **الله** عندما يرى شجرة زيتون مثمرة، وعندما يحرث الحقل بعد المطر، ويرى لون الأرض يتغير، وتخرج الديدان من قلب التراب، وتنشر رائحة ثقيلة في الجو»(٧٤)، وفي مقطع آخر يقول: «في فلسطين المحروسة، فإن الفلاحين يؤلفون قصصاً حول كل صخرة وكل مغارة وكل شجرة، وهم يسمون أشجارهم الكبيرة، ويسمون أراضيهم، ويسمون حيواناتهم وينابيعهم...الخ»(٧٥). كما أن المكان لدى الروائي الفلسطيني إميل حبيبي كان ممتداً ليستوعب كل أرض فلسطين: مدنها وقراها وعيونها وطرقها وجبالها وسهولها، وكل ما تحتوي تلك الأماكن من بشر وشجر وماء وقنن وخمائل وبيارات، حتى ليمكن اعتماداً على رواية (المتشائل) أكثر من غيرها أن نستخلص تقويماً جغرافياً وتاريخياً لفلسطين، ففي هذه الرواية يورد عدداً من أسماء القرى التي هدمها الاحتلال وشرد أهلها بكل وحشية وقسوة(٧٦).

وكما حضرت الأمكنة الفلسطينية في فناء الأدب والفن عموماً، حضرت كذلك في عالم السينما، فقد بدأت عملية إحياء ذاكرة المكان الفلسطيني بعد غفوة طويلة، حيث كانت البداية المتميزة في فيلم (معلول تحتفل بدمارها) للمخرج الفلسطيني ميشيل خليفي عام ١٩٨٥م، وفي هذا السياق ظهرت المدن الفلسطينية المحتلة حيفا وعكا ويافا والناصرة وصفد وطبريا والكثير من القرى الفلسطينية ما دمر منها وما بقي في كثير من الأفلام السينمائية مجسدة بذلك الحضور الفلسطيني في مكانه، والتأكيد على أزلية هذا الحضور، ومن هذه الأفلام (بلاد البحر والرمل) للمخرج الفلسطيني جورج خليفي عام ١٩٨٢، وفيلم (حكاية مدينة على الشاطئ) للمخرج الفلسطيني علي نصار عام ١٩٨٣م وفيلم (نداء الجذور) للمخرج الفلسطيني ناظم شريدي عام ١٩٨٥م، وربما كان فيلم (نهر البارد) للمخرج الفلسطيني قاسم حول عام ١٩٧١م أول محاولة من قبل السينما الفلسطينية لتسجيل ذاكرة المخيم(٧٧).

إن شعور الإنسان بحالة من اليتم المكاني جعلته يطفح بمشاعر التفجع على فقد الديار، فلم يجد سبيلاً لمؤانسة هذه المشاعر وتهدئتها سوى استذكار عوالم المكان الغائب، ولعل ما نظمه الشاعر الفلسطيني محمد القيسي في هذا السياق يعتبر أنقى صورة للمشاعر الملتهبة بجراح نكبة المكان الفلسطيني، فيقول مؤبناً هذا المكان: «أين صارت دارتنا... جارة الكروم... أين صارت تلك الحاكورة بنباتاتها وخضرواتها المنوعة، ودجاجاتها وحمامها الطيار الأليف... أين صارت الأعشاش التي كنت أراقبها وأرى أفراخها تكبر وتكبر حتى تملؤني الغصة والحنق، فلا أمسك منها واحداً، أفرح بها أمام الصبيان وأطيره... أين صار فطر كانون وحنون نيسان الأحمر»(٧٨).

ومن زاوية أخرى فإن حالة اليتم المكاني جعلت الإنسان الفلسطيني يستصرخ الذات والغير ويحملهما مسؤولية فقد المكان وضياعه، وقد رسم الفنان سليم مخولي علامات استفهام كثيرة لعلها تتمكن من استجواب الضحية فتبعث في جسدها روح العودة، ففي إحدى زياراته بصحبة بعض زملائه الفنانين لقريته كفر برعم يقول: «اتخذت مكاناً للجلوس في ظلال الأشجار وباشرنا عملنا، كل يرسم حسب هواه بصمت وانفعال، رسمنا الكنيسة وما شاهدناه من حيطان وقناطر وأقواس وحجارة مبعثرة وغيرها، شعرنا بأنفاس أصحابها حولنا، وعيونهم تطل على لوحاتنا، حين عملنا كانوا معنا وكنا معهم، وكم وددنا أن نسأل أحدهم كيف تم هذا ؟... كيف تركتم بلدكم الجميلة الرائعة الموقع، الطيبة الهواء بمائها وخصبها، كيف تركتم هذه الجنة ورحلتم»(٧٩). وتتكرر علامات الاستفهام هذه لدى عيسى العزة، فيقول:» يا الله من ترك هذه الجنان المعلقة ؟ من هان ؟ ومن دان ؟ ومن سمسر ؟ ومن باع ؟ ومن هو الذي ما زال يعرض ترابك يا فلسطين وعظامكم أيها الأجداد في سوق النخاسة... وفي المزاد العلني المكشوف والمفضوح ؟ حقي أن أكون هنا... أن أعود إلى هنا... أن أبقى هنا»(٨٠). وهذه أيضاً أم مصطفى القريني (٧٢عاماً) من حي الجبلية (يافا) وتسكن الآن في نابلس راحت هي الأخرى بعد إفاقتها من صدمة النكبة تبحث عن إجابة لعلامات الاستفهام تلك، فتقول: «الكل كان ينوح ويعيطوا ويقولوا شو إللي خلانا نطلع ! ليش طلعنا ودشرنا كل إشي»(٨١).

في كل مكان من عالمنا يعيش الإنسان في المكان، أما الفلسطيني فإن المكان يعيش فيه، ففي داخل الإنسان الفلسطيني تبقى دائماً روح الأمكنة شاهقة بذاكرة من سكنوها وعايشوها، فكل قطعة حجر، كل ساحل، كل بيت قديم، كل شارع، كل حارة... تبقى حيوات لها محبة وانتماء في قلب الإنسان الفلسطيني المصاب بيوتوبيا عشق المكان.

ولعل ما يجسد ذلك هي تلك المشاهد التي رصدت في أثناء عودة بعض المهجرين الفلسطينيين على سبيل الزيارة إلى بلداتهم وقراهم التي هجروا منها قسراً أثناء أحداث

النكبة، حيث تكشفت مشاعر حميمة ومتبادلة من الحنين والشوق بين الإنسان والمكان، وهذا شعور فلسطيني جمعي متجذر ومزمن، فعندما كان الإنسان الفلسطيني العائد يلتقي بفردوسه الأرضي، كان يحتضن المكان ويقبل موجوداته كلها، عسى أن يتلمس فيها أماكن طفولته وصباه، ويشم فيها رائحة أجداده وأسلافه، ويسمع منها حكاياته مع بيارات البرتقال وحقول القمح، ثم يركض بعدها مسرعاً عسى أن يصنع بقوة الزمن الضائع كله ذاكرة بصرية للمكان في محاولة لامتلاكه كله كي يلتهمه حتى الثمالة، وحينها تهاجمه المشاعر بوحشية الكائن المتحفز، مشاعر اللقاء الغامض بالناس، ومشاعر الفقد للأشياء.

وليس هناك من صورة أكثر تجسيداً لحالة الامتزاج بين المكان وصاحبه مما يرويه عيسى العزة عندما زار قريته تل الصافي (قضاء الخليل) في تشرين الأول من عام ٢٠٠٤م، فيقول: «كأن الأرض علمت بقدومي... أوكأنها في عيد أو كرنفال... الأرض تتنفس... الأرض تهمس... الأرض تتزين... الأرض تجرح... الأرض تقتل... الأرض تبوح... الأرض تحتفل... تستقبل، تشكو، تعاتبنا، تبكي وتنوح... أردت أن أبحث عن شيء... أردت أن أركض وأنا على أبواب السبعين... الأرض تأخذني... أحاول أن أطير... أفقد الاتجاه... أبحث عن حقل... عن كرم... عن شجرة رمان أو تين أو مشمش كنت أجلس تحت ظلالها وأنا ابن إثنى عشر عاماً»(٨٢).

وهكذا فإن الأماكن التي فقدناها تظل حية في داخلنا، وكما يقول باشلار: «فهي تلح علينا،لأنها تعاود الحياة، وكأنها تتوقع منا أن نمنحها تكملة لما ينقصها من حياة، فما أروع أن نعيش اليوم في بيوت الماضي، وأن تتخذ ذكرياتنا فجأة إمكانية حية للوجود! إننا نتأمل الماضي ونشعر بالندم، لأننا لم نعش بعمق كاف، ندم يملأ قلوبنا، يأتينا من الماضي ويبهظنا»(٨٣). وهناك مشاهد عديدة تفيض بها مشاعر العائدين إلى قراهم وبلداتهم بعد فراق طويل، فتروي جميلة حماد أن المرة الأولى التي رأت فيها والدها يبكي بحرقة حقيقية هي عندما زارت معه بلدهم الأصلي عنابة (قضاء الرملة)(٨٤). ويصف الشاعر الفلسطيني محمود درويش لحظة احتراقه بلهفة العودة، وكيف أنه حول المكان إلى قصيدة بقوله: «إن جنازة إميل حبيبي وفرت لي فرصة لأفرح بعودة قصيرة إلى الجليل، إذ حصلت على تصريح لمدة ثلاثة أيام للمشاركة في تأبين إميل حبيبي ولزيارة أمي، وهنالك احترقت بلهفة العودة، فمن هنا خرجت، وإلى هنا أعود، ورأيت كيف يستطيع المرء أن يولد من جديد، كان المكان قصيدتي... لم ينقصني شيء لأحقق موتي المشتهى في ذروة هذه الولادة، وأنا أحرم من اكتمال الدائرة، كنت أدرك أن انسلاخ الأسطورة عن الواقع ما زال في حاجة إلى مزيد من الماضي، وأن تحرر الواقع من الأسطورة ما زال بحاجة إلى المستقبل، أما الحاضر فلم يكن أكثر من زيارة يعود الزائر بعدها إلى توازنه الصعب، بين منفى لا بد منه، وبين وطن لا بد منه، فلا يعرف هذا العكس ذاك، ولا ذاك بنقيض هذا، ففي كل وطن منفى، وفي المنفى بيت من الشعر»(٨٥).

ويصف خالد منصور مشاعر والده عندما زار قريته أم الزينات (قضاء حيفا) قائلاً: «على الرغم من كبر سن والدي، فإنه لم يكن يتعب من التجول في البلدة، كان يقضي ساعات وساعات هائماً على وجهه في دروبها القديمة، وكأنه يبحث عن شيء ما كان قد نسيه عند خروجه الأخير من البلدة، وعندما كان يحين موعد العودة كان أبي يركب السيارة متثاقلاً، وكأنه يريد أن يقول لنا: اتركوني هنا في بلدتي، وعودوا أنتم إلى مخيمكم»(٨٦). وهكذا كما يقول باشلار: فإن «الذكريات البعيدة حينما تستدعى نضفي عليها قيمة ما، هالة من السعادة، وإذا احتجبت هذه الهالة، فإن الوقائع تمتنع عن الوجود»(٨٧).

إن احتفاء العائدين بعناق المكان هي لحظة فرح لا تكتمل أحياناً، إذ يفيق بعضهم على أنقاض حلم مجهض، جراء اصطدامهم بموجة مرعبة من التحولات المكانية، وحينها فإنهم يسقطون في هوة ليس فيها من مكان الطفولة شيء من طفولة المكان سوى أشباح الماضي وروائح عناصره الهالكة، فيتراءى أمامهم المكان الموروث كأنه تعرض لعملية جراحية تجميلية قبيحة، تسببت في سلب عذريته وأخفت سحره المعهود، وحينها لا يجدون من وسيلة لتوقظهم من صدمتهم سوى الهذيان عله يفتح لهم أبواب الماضي ليجلبوا منه وصف الوجوه الغائبة وصوت الحكايات المكتومة وصروح الأماكن الآفلة، وبذلك فإن العودة لا تكون مكتملة وحقيقية عند هؤلاء إلا حين يصلوا إلى تلك المساحة المكانية والزمنية التي غادروها ورحلوا عنها، وإلى ذلك تشير هالة سكاكيني ابنة المربي الفلسطيني خليل السكاكيني وهي تصف مشاعر الغربة المكانية التي طغت على فرحتها عند زيارة بيتها في منطقة القطمون بالقدس سنة ١٩٦٧م، فتقول: «بعد تسعة عشر عاماً من مغادرته، كانت مواجهة حزينة، إذ بدت رؤيته أشبه بلقاء شخص عزيز تركته في المرة الأخيرة شاباً يافعاً، مفعم بالصحة والنشاط، ثم وجدته فجأة كبيراً مريضاً، خالياً من الحيوية، وأكثر من ذلك فقد بدا مثل صديق قديم تلتقيه صدفة بعد طول غياب لتجده شخصية أخرى تختلف جذرياً عن تلك التي عهدتها»(٨٨). وعندما رأت الحاجة رضية حسين مرعي (٦٤عاماً) بقايا قريتها المنسي(حيفا) لم تجد فيها ما تحتضنه سوى حفنة تراب عسى أن تتلمس فيها أثر لخطوات طفولتها، فتقول: «زرت بلدنا قبل الانتفاضة الأولى، رحت مع ناس من بلدنا نزورها في موسم قطف الزيتون، ولقينا القرية في دمار كامل، وما بقي منها شيء سوى مداميك الحجر المدمرة، لقينا بلدنا مليانة بالمستعمرات وبيوت اليهود المتنقلة، قعدت أنا والنسوان إللي معنا نبكي وحملنا حفنات من تراب البلد وشمينا ريحتها، ريحة بلادنا وأراضينا، أخذنا حفنات التراب ورجعنا على مخيم جنين، ومن يومها بنشم تراب البلد كل ما حنينا للأرض»(٨٩).

على الرغم أن جيل ما بعد النكبة ولد بعيداً عن الوطن في بلاد اللجوء والشتات، فإنه ظل مرتبطاً بالأرض، ويعتقد بأن له صلة رحم وقرابة بالمكان وشخوصه، وظل أيضاً مصراً على حقه في العودة، فقد ورث هذه المفاهيم عن آبائه وأجداده، وعرف أهميتها وقيمتها من خلال أحاديثهم التي لا تنقطع، ولذلك فإن هذا الجيل يعيش بانتظار العودة إلى مكان لم يشاهده بعينه، ولكنه يعيش في قلبه، ويحتل المساحة الأوسع في مخيلته، فالمكان الخيالي الذي تشكل لدى جيل ما بعد النكبة من مادة غنية متنوعة المصادر يعتبر من أرقى الأمكنة وأكثرها جمالاً، لأنه تشكل عبر كيمياء الخيال، ولذلك نجده قد تجاوز المكان الجغرافي فتنة ودلالة. ولعل» قدرة اللاجئ الفلسطيني على استعادة واستحضار المكان المسلوب تخيلياً ومحاكاته واقعياً، جعله ينتصر على الحاضر القامع بالماضي الضائع، فإذا كانت صفته كلاجئ ليست سوى نتاج لاقتلاعه من المكان بكل ما اتصل بذلك من تدمير لعلاقاته الاجتماعية ودمغه بالضياع والتشرد، فقد عمل على محاصرة هذه النتائج والحد من تأثيرها عليه، وذلك باستعادة الأسماء والعلاقات الاجتماعية كما كانت تقريباً في فلسطين قبل النكبة، وهي ليست استعادة وهمية فقط، وإنما استعادة حقيقة بمقدار ما تستطيع غريزة البقاء أن تكون كذلك، فأعيد تنظيم الأحياء بحسب القرى الأصلية، وأعيد إنتاج العلاقات الاجتماعية بصورة شبه مطابقة للصورة التي كانت قبل النكبة، وتم التمسك بالعادات والتقاليد التي فقدت موضوعياً الأساس المادي الذي أنتجها، وقد تمكن اللاجئ بهذه الصيغة الالتفافية الإفلات من الحصار الذي فرضه واقع اللجوء، فلم يسمح له باستيعابه والسيطرة عليه، وذلك بالبقاء على بعد نفسي عنه، فحافظ بذلك على هامش من الحرية مكنه من توريث أطفاله جغرافية الوطن والقرية والبيت في أدق تفاصيلها وتوهج قيمها، مجسداً بذلك أحد أهم أشكال المقاومة لعملية إزالة هذه الأماكن ومحوها من قبل السلطات الإسرائيلية، فالمكان الذي أصبح اسمه عبرياً أو أزيل بالجرافات بقي ينتقل من ذاكرة إلى ذاكرة باسمه ورسمه الأصليين محتفظاً بكل نبض الحياة فيه، نافياً بذلك عملية الانفصال والاتصال التي تمت رغماً عنه، ومنكراً ما طرأ من تحول على المكان، وبذلك لعب واقع اللجوء دوراً نقيضاً للدور المراد له أن يلعبه، فبدلاً من أن يقود إلى انسلاخ الإنسان عن وطنه، ويقتلع الأرض من وجدانه، فقد لعب دور المحفز للاستحضار والاستعادة الدائمة للوطن»(٩٠).

وفي هذا السياق يقول الحاج إبراهيم ربيع محمود عودة (١١٠أعوام) من المجدل: «لقد زرعت حب الوطن في نفوس أبنائي وأحفادي وأحفادهم، فلا يخلو يوم من ذكر الوطن المسلوب، مشيراً إلى أنه في كل ليلة هناك حديث عن الوطن، وابتسم وهو يهز رأسه قائلاً: أصبح أحفادي يسبقونني في الحديث عن المجدل، حيث أن الحديث يتكرر يومياً، فأنا لا أمل من الكلام عن مجدل عسقلان مسقط رأسي، وهم يتعطشون لكل معلومة ولكل همسة عن

الوطن... وقال: كثير من أحفادي يطالبون بزيارة المجدل ليلمسوا ترابها ويشتموا نسيمها ويغتسلوا في مائها ويأكلوا من خيراتها»(٩١). وتقول طفلة فلسطينية من الجيل الثالث تقيم في الأردن:» تحدثني جدتي عن فلسطين وهي مثل القاموس، فلديها حكايات كثيرة ترويها عن فلسطين، وهي تحدثنا دائماً عن فلسطين، أتمنى لو أمكنني زيارة فلسطين»(٩٢). ويقول طفل فلسطيني آخر يقيم في سوريا: «أنا فلسطيني حتى الجذور، وأنا لم أزر فلسطين أبداً، ولكنني أحببتها بفضل أمي وجدي وجدتي»(٩٣).

ولعل ما يذكر في هذا الصدد أيضاً تلك الكلمات التي وردت في رواية أم عارف العائدي (مواليد ١٩٣٤م) من لوبيا، فتقول: «ها نحن نورث ذاكرتنا لأبنائنا وأحفادنا في المخيمات، وما زلنا نعيش أمل العودة، وأنا إذا قالوا لي احزمي حقائبك لتعودي، فساعود وأعيش هناك في بلدتنا ووطننا فلسطين الذي لا ننساه حتى الممات، بلادنا بلاد الخيرات»(٩٤).

لم يصبح المكان لدى الإنسان الفلسطيني مجرد ذكرى، بل تحول بفعل المعاناة والمقاومة إلى مكان للمستقبل يجب البحث عن سبيل للعودة إليه، فعندما يتحدث الجيل الأول (٦١عاماً فما فوق) عن حق العودة، فإنه يتحدث عنه من منظور حسي ومادي، فأبناء هذا الجيل يتطلعون إلى ممارسة حق العودة بصورة حسية وفعلية من خلال العودة إلى أراضيهم وبيوتهم التي اضطروا إلى هجرها قسراً أثناء أحداث النكبة، فقد قام قسم من أبناء هذا الجيل منذ هجرتهم بمحاولات متكررة للرجوع إلى أراضيهم وبيوتهم السابقة، سواء كمتسللين أو بهدف الإقامة أو الزيارة، ويبدو أن السبب وراء ذلك هو محاولة هؤلاء إنقاذ ذكرياتهم الضائعة، وتأكيد ارتباطهم المادي والمعنوي بالأرض والبيت (٩٥)، وليس كما يدعي بعض المؤرخين اليهود أمثال بيني موريس من أن عودة هؤلاء كان دافعها الجوع فقط (٩٦). فبعد النزوح بفترة قصيرة حاول بعض المهجرين العودة إلى بيوتهم في قراهم الأصلية، والقيام بزراعة بعض المحاصيل في أراضيهم، فأطلق الإسرائيليون عليهم مصطلح المتسللين (٩٧). ومما يذكر من روايات لشهود عيان في هذا الصدد، رواية يوسف إبراهيم عبد الدين حيث تحدث عن مغامرة أهل قرية الدوايمة عندما عادوا لقريتهم، فيقول: « لقد غامروا وعادوا للقرية... من ينجو فهو ينجو بإعجوبة... البعض قتل بلغم، والبعض تكهرب على الأسلاك التي أحاطت بالقرية، والبعض ألقي القبض عليه وقتل»(٩٨). وفي هذا الصدد تروي سعاد حداد (مواليد ١٩٣١م) من قرية ترشيحا قائلة: «في إلي أخ اسمه صبحي وكان مثل النمر، كان عمره (١٠سنوات)، قال لأمي بدي أروح ع ترشيحا أشوف البيت، قالتله أمي إسَّا بقتلوك اليهود، ما رد عليها وراح على البيت، وشاف ستي، ولما رجع على البقيعة قال لأمي ارجعوا ع ترشيحا، أخوي صبحي قال لأمي بتقولك ستي ناس كثير رجعوا وقاعدين بالكنيسة، بعد شي شهر رجعنا تهريب، تسللنا بالعتمة، لأنه بالليل ما كان يكون يهود... كل البلد تسللت بهاي الطريقة، واحد يقول للثاني... وهيك رجع الناس»(٩٩).

إن ما يظهر تمسك الجيل الأول بحق العودة هو رفض أبناء هذا الجيل لكافة الحلول المقترحة الرامية إلى حل قضيتهم بعيداً عن حق العودة، فقد رفض هؤلاء مجرد الحديث عن التوطين أو التعويض، بل إن عدداً كبيراً منهم – كما أشار الدكتور عادل يحيى في كتابه (اللاجئون الفلسطينيون ١٩٤٨م –١٩٩٨م)– هدد بوقف اللقاء مع الباحث إذا أصر على الخوض في هذا الموضوع(١٠٠)، ولعل ما ورد في حديث الحاج رجا موعد (مواليد ١٩١٢م) من صفورية ما يؤكد هذه الحقيقة، فيقول: «الآن نحن على شوق وحنين للعودة إلى ديارنا... حتى هذه اللحظة نحن مستعدون للعودة... وحول ما أشيع قبل سنوات من موضوع التعويض، فإذا طرح مجدداً، فأنا لا أقبل ولا الشعب الفلسطيني في الشتات يقبل ذلك، لأن هذا يعتبر بمثابة صك اعتراف ببيع الوطن، فنحن نريد العودة الحقيقية لديارنا... أنا أرفض التعويض، فالفلسطيني معني بعودته حتى ولو بعد أجيال، فهذه حقوقنا التاريخية التي لا نفرط بها مهما تحولت وتغيرت الأزمنة، نحن نرفض أي بديل عن الوطن، وخيارنا الوحيد هو العودة... إنني من خلال وجودي هنا في اللجوء لا أنام ليلة إلا وأتذكر أرضنا فلسطين، ولا أغفو إلا وأفكر بمسقط رأسي صفورية التي لم تذهب من ذاكرتي... فلسطين ستبقى حلمنا الأبدي»(١٠١).

وفي هذا السياق أيضاً يقول جودت علي أبو سرية من قرية الشيخ مونس ويقيم الآن في مخيم عسكر: «إحنا لنا حق بنطالب فيه، عمر ما حق ضاع، إسرائيل زورت التاريخ، وادعت أنه إلها حق هون، أنا إذا ما أخدت حقي اليوم، راح أحكي قصتنا بالتفاصيل لأولادي ولأولادهم، تيجي كل العالم وتعطيني كل ملايين الدولارات إللي بالعالم ما رح أخدهم، أنا بدي حقي، حقي أرض في قرية الشيخ مونس، وإن ما أخدت حقي اليوم، رح بيجي اليوم إللي بناخد فيه حقنا، بدها صبر ورح ناخد حقنا»(١٠٢).

ولعل ما يشير إلى ترسخ فكرة العودة بين أفراد الجيل الأول تلك الرواية التي أوردها عودة الرنتيسي ووصف فيها والده حينما أراد إصلاح بيته عندما رأى فيه بعض الخراب في أثناء زيارته لمدينة اللد اعتقاداً منه بأن هذا البيت سيبقى إلى الأبد ملكاً له، وأنه سيعود إليه في يوم من الأيام، فيقول: أذكر أن حياة والدي كان منفعلاً جداً، لم يعرف أين هو؟ قال: أين نحن؟ قلت له: في بيتنا، لقد وجدنا ثلاث عائلات يهودية تسكن بيتنا، وقد قامت هذه العائلات بتقسيم البيت من الداخل، ولاحظنا بأنهم قد أهملوا البيت من الخارج لدرجة أن هذا الأمر قد حز في نفسي والدي، وبلا شعور أراد أن يتناول شيئاً من الأسمنت كي يقوم بعملية إصلاح بيته المهمل (١٠٣). ومما يذكر أيضاً في هذا الصدد ما رواه خالد منصور من قرية أم الزينات (حيفا) عن والده، حيث قال: «لقد مات أبي رحمه الله في العام ١٩٨٦م وهو لم تفارق لسانه سيرة أم الزينات وأهل أم الزينات، وقد أوصانا أن ننقل رفاته بالإضافة إلى رفات صديق آخر عزيز عليه (داوود الخالد) إلى أم الزينات، وذلك عندما نعود إليها ونحررها من دنس الغاصبين»(١٠٤).

خاتمة

أصبح للمكان الفلسطيني بعد النكبة خصوصية معينة، حيث أصبح يشكل مصدراً رئيساً للحفاظ على الهوية الفلسطينية في ظل حالة التشتت واللجوء التي يعيشها أبناء الشعب الفلسطيني، فذاكرة المكان ظلت شاهقة رغم كل محاولات الهدم والتدمير، وعامرة بشهادات وصور توثق العلاقة بين الإنسان الفلسطيني وأرضه، وتصون الجغرافية الفلسطينية من محاولات تشويه معالمها وطمس ملامحها.

ولذلك ينبغي على الباحثين والمهتمين بمجال التاريخ الشفوي الفلسطيني أن يوجهوا معظم جهودهم نحو ذاكرة المكان، وذلك من خلال استغلال فرص زيارة وعودة بعض المهجرين الفلسطينيين إلى قراهم وبلداتهم التي هجروا منها قسراً في أعقاب حرب عام١٩٤٨ م، والقيام بإجراء مقابلات شخصية معهم، لأنهم بذلك يصرعون الزمن قبل أن يصرع أولئك الرواة، وينبغي أن تجرى معهم هذه المقابلات بين أحضان طبيعة المكان وعمرانه، لأن المكان بسحره سيفيض عليهم بمشاعر تنظم حديث الأمس فيصبح أكثر قوة وعطاء، وسيمنحهم مهارة تلون صور الماضي فتصبح أكثر وضوحاً وبهاءاً، وبهذا يكون هؤلاء الباحثون قد وظفوا عامل المكان ليؤدي دوراً مهماً في تنشيط ذاكرة أولئك الرواة، فتجدهم حينها يسترجعون مواقف وأحداثاً، ويستجلبون صوراً ومشاهد ما كانت مخيلتهم ستنجح في استحضارها لولا توافر عامل المكان، الذي يعتبر بحق عنصراً مهماً ومحركاً فاعلاً في عملية إعادة بناء الماضي بتفصيلاته الدقيقة، وإعادة تلوين صوره الباهتة لتعود إلى هيئتها الطبيعية كما كانت وقت وقوعها، فتنبعث حينها مظاهر الحياة من جديد في عوالم المكان ومفرداته لتنطق وتتحدث إلى أناس ألفت وجوههم، وعشقت مشاعرهم، وتشربت قيمهم.

كذلك ينبغي على هؤلاء الباحثين أن يصعدوا ثقافة المواجهة لدى المكان، وذلك من خلال قيامهم برصد المفردات والمشاهد والصور المكانية التي يفيد بها هؤلاء الرواة، ويعتمدونها في تقرير مشروع وطني لتدوين جغرافية القرى والبلدات الفلسطينية المدمرة والمهجرة، للحفاظ عليها من اعتداءات الجغرافيا الإسرائيلية، ولتكون وثائق إثبات لأصالة المكان وحق الإنسان.

هوامش البحث

١. عيسى قراقع: في ذلك الكهف، صحيفة حق العودة، العدد ١٠ – ١١، عدد خاص بمناسبة مرور سبعة وخمسون عاماً على النكبة، تصدر عن بديل «المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين «، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥م، ص٣٢.

٢. خليل مبروك: شاهد على وجع النكبة ومعاناة اللاجئين في وطن اللاأرض ومعسكرات الاغتراب، صحيفة القدس، القدس، العدد ١٢٣٤٨، الاثنين ٠٥/٠١/ ٢٠٠٤م، ص٢٤.

٣. علاء الدين ضهير(إعداد): شهود النكبة... روايات شفوية للشهود العيان على حرب عام ١٩٤٨م، وحدة الإعلام(زاجل)، دائرة العلاقات العامة، جامعة النجاح بنابلس، ٢٠٠٦م، ص٢٢.

٤. عبد الفتاح القلقيلي: الأرض في ذاكرة الفلسطينيين، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل)، رام الله، ٢٠٠٤م، ص ٩٩.

٥. رنين جريس: حكاية عروس الجليل: ترشيحا، صحيفة حق العودة، العدد ٢٠، تصدر عن بديل" المركز الفلسطيني لحقوق المواطنة واللاجئين"، بيت لحم، كانون أول ٢٠٠٦م، ص٢٠.

٦. خالد منصور: سلام عليك يا أم الزينات، صحيفة حق العودة، العدد ١٠–١١، تصدر عن بديل " المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين " بيت لحم، أيار ٢٠٠٥م، ص٢٤.

٧. عبد الرازق اليحيى: عبد الرازق اليحيى بين العسكرية والسياسة (ذكريات)، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني " شمل "، رام الله، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٦م، ص٢٣.

٨. سليم مخولي: ذاكرة مكان... كفر برعم.على موقع الانترنت:
http://www.ibdaa3.com/saleem%201.htm

٩. فيصل حوراني: الحنين... حكاية عودة، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني " شمل "، رام الله، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٦م، ص٧.

١٠. حافظ محمد جمال الدين المغربي: شعرية المكان والزمان. على موقع الانترنت:
http://www.althakerah.net/sub.php?idauther=&loc=&mid=2759&level=3&locat=&head

١١. مالك الريماوي: الحكاية... جغرافية المعنى وترحال الخيال، قراءة في كتاب حكايات عتيقة، صحيفة الأيام، رام الله، العدد ٣٤١١، الثلاثاء ١٩/٠٧/ ٢٠٠٥م، ص٢٩. وكتاب حكايات عتيقة من تأليف أرمينيو المندروس، ترجمة أحمد يعقوب، منشورات مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله.

١٢. سمر شاهين (تحقيق): صحيفة القدس تتجول في ذاكرة لاجئة معمرة من إسدود، صحيفة القدس، القدس، العدد ١٢٢٣٧، الأحد ١٤/٠٩/ ٢٠٠٣م، ص١٨.
١٣. فيصل حوراني: دروب المنفى... الوطن في الذاكرة، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني "شمل"، رام الله، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٤م، ص١١٠.
١٤. (١٤) يحيى القيسي: الثقافة العربية تخسر بموت إحسان عباس ناقداً ومحققاً ومترجماً وأكاديمياً من طراز رفيع، صحيفة الحياة الجديدة، رام الله، الخميس ٠٧/٠٨/٢٠٠٣م، ص ١٠.
١٥. صحيفة القدس الفلسطينية، العدد ١٢٣٢٦، الأحد ١٤/١٢/٢٠٠٣م، ص ١٤.
١٦. بيت التراث: هو متحف نصراوي للتراث الفلسطيني، أسسه خالد عوض في بيت قديم بالناصرة، والبيت في الأصل يعود لطنوس قعوار، ويقع في سوق الناصرة، وطنوس قعوار أول رئيس بلدية للناصرة إبان الحكم العثماني، إذ تولى المنصب لمدة عشر سنوات، ولكن تاريخ هذا البيت أبعد بكثير، إذ يقدر عمره بحوالي ٢٥٠ سنة، وهو مقسوم إلى قسمين، الزملك وهو قسم الرجال وفيه تمت إقامة بيت التراث، وبقي الحرملك (قسم النساء) بيتاً مؤجراً.
هبه فيصل زعبي: متحف نصراوي للتراث الفلسطيني، صحيفة المشهد الإسرائيلي، تصدر عن مدار "المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية"، رام الله، العدد ١٣١، الثلاثاء ١٨/٠٤/٢٠٠٦م، ص٧.
١٧. المرجع والصفحة نفسهما.
١٨. غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ١٩٩٦م، ص٤٣.
١٩. بشار دراغمة (حوار): فدوى طوقان في آخر لقاء صحفي تروي رحلة العمر الصعبة، صحيفة الحياة الجديدة، رام الله، العدد ٢٩٢٨، الأحد ١٤/١٢/٢٠٠٣م، ص٧.
٢٠. شاهين: صحيفة القدس تتجول في ذاكرة لاجئة معمرة من اسدود، مرجع سابق، ص١٨.
٢١. المرجع والصفحة نفسهما.
٢٢. عباس نمر: الطابون في التراث الشعبي الفلسطيني، صحيفة القدس، القدس، الإثنين ٠١/٠٧/١٩٩٦م، ص١٥.
٢٣. محمد توفيق الصواف: صورة الأرض في الأيديولوجيا الصهيونية، مجلة صامد، العدد١١٣، عدد خاص بمناسبة مرور خمسون عاماً على نكبة فلسطين، مؤسسة صامد، بيروت، تموز – آب – أيلول ١٩٩٨م، ص ١٥٣.
٢٤. مصطفى كبها: جولة في سنديانة الروح.على موقع الانترنت:
http://www.arabs48.com/display.x?cid=1&sid=23&id=35170

٢٥. ضهير: مرجع سابق، ص٦٠.
٢٦. مبروك: مرجع سابق، ص٢٤.
٢٧. (٢٧) كانت حصيلة رحلة الفنان سليم مخولي إلى قريته كفر برعم رسم ثلاثين لوحة، عرضها في كفر ياسيف تحت عنوان" ذاكرة مكان".
مخولي: مرجع سابق، نفس الصفحة الالكترونية.
٢٨. مخولي: المرجع والصفحة نفسهما.
٢٩. صحيفة حق العودة تحاور الدكتور ابراهيم رزق عطا الله حول كتابه الجديد: إقرث... قضية شعب وحق وأمل، صحيفة حق العودة، العدد ٢٠، تصدر عن بديل "المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين"، بيت لحم، كانون أول ٢٠٠٦م، ص ١٩.
٣٠. سلمان ناطور: مفاتيح أبو سلمى وزنزانة تداعيات ما بعد النكبة، صحيفة حق العودة، العدد ١٠-١١، تصدر عن بديل " المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين" بيت لحم، أيار ٢٠٠٥، ص٢٧.
٣١. باشلار: مرجع سابق، ص٤٤.
٣٢. مبروك: مرجع سابق، ص ٢٤.
٣٣. عيسى العزة: أبعد من ذاكرة، صحيفة حق العودة، العدد ١٠- ١١، تصدر عن بديل "المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين "، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥ م، ص٢٥.
٣٤. خالد منصور: مرجع سابق، ص٢٤.
٣٥. حوراني: الحنين، مرجع سابق، ص٥٤.
٣٦. أمير غيلات: الطنطورة ٤٨... تفاصيل ليلة المجزرة، صحيفة الأيام، رام الله، العدد ١٤٦٩، السبت، ٢٢/٠١/٢٠٠٠م، ص ٢٨.
٣٧. قراقع: مرجع سابق، ص ٣٢.
٣٨. ضهير: مرجع سابق، ص٧٥.
٣٩. واكيم واكيم: المهجرون اللاجئون في وطنهم منذ النكبة ١٩٤٨م، مجلة صامد، العدد ١١٣، مؤسسة صامد، بيروت، تموز- آب - أيلول ١٩٩٨م، ص ١٩٩.
٤٠. علي العائدي: ذاكرة النكبة وشهادات أصحابها، مجلة صامد، العدد ١١٤، مؤسسة صامد، بيروت، تشرين الأول - تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٩٨م، ص٢٢٧.
٤١. رنين جريس: قرية سحماتا.... حكايات التهجير وحنين العودة، صحيفة حق العودة، العدد ١٩، تصدر عن بديل " المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين " بيت لحم، أيلول ٢٠٠٦م، ص ١٦.
٤٢. سلمان أبو ستة: حق العودة مقدس وقانوني وممكن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٥١-١٥٢.

٤٣. المرجع نفسه، ص ١٦٠–١٦١.
٤٤. عادل يحيى: اللاجئون الفلسطينيون (تاريخ شفوي)، المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي، رام الله، ١٩٩٨م، ص ٥٢–٥٣.
٤٥. عبد السلام الريماوي: شيوخ يتذكرون نكبة الشعب الفلسطيني، صحيفة صوت النساء، رام الله، العدد ١٢٠، الخميس ١٧/٠٥/ ٢٠٠١م، ص٧.
٤٦. رنين جريس: حكاية عروس الجليل، مرجع سابق، ص٢١.
٤٧. القلقيلي: مرجع سابق، ص١١٢.
٤٨. ضهير: مرجع سابق، ص ٨٨.
٤٩. المرجع نفسه، ص١٦.
٥٠. مخولي: مرجع سابق، نفس الصفحة الالكترونية.
٥١. شريف كناعنة: لقد كنت حاضراً، صحيفة حق العودة، العدد ١٠–١١، تصدر عن بديل" المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين "، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥م، ص٢٨.
٥٢. سمر قطب (ترجمة): ذاكرة الدم... ذاكرة الحجر (خمس شهادات فلسطينية)، مجلة صامد، العدد ١١٣، مؤسسة صامد، بيروت، تموز – آب – أيلول – ١٩٩٨م، ص٣٠٢.
٥٣. جريس: قرية سحماتا، مرجع سابق، ص١٧.
٥٤. فاروق وادي: ذاكرة الخمسين... نصف قرن على الرحيل، مجلة صامد، العدد ١١٤، مؤسسة صامد، بيروت، تشرين الأول – تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٩٨م، ص٢١١.
٥٥. المرجع نفسه، ص ٢٠٧.
٥٦. العائدي: مرجع سابق، ص ٢٣٠.
٥٧. حوار تلفزيون المستقبل اللبناني مع الشاعر الفلسطيني إيهاب بسيسو المقيم في لندن. على موقع الانترنت:
http://www.almustaqbal.com/storiesaspx?categoryID=8&issueID=1050
٥٨. سعيد أبو معلا (حوار): الأديب عدنان كنفاني... مسكون المكان وساكنه، صحيفة الأيام، رام الله، العدد ٣٧١٥، الثلاثاء ٢٣/ ٠٥/ ٢٠٠٦م، ص ٢٨.
٥٩. سميرة عوض (حوار) محمود درويش في حواره مع الرأي: الشعر يقاوم كل ما يعيق تطور حرية الإنسان والإبداع. على موقع الانترنت:
http://www.ninfo.gov.ps/culture/Arabic/31–07–04htm
٦٠. المرجع والصفحة نفسهما.
٦١. حوار مع الشاعر الفلسطيني إيهاب بسيسو، نفس الصفحة الالكترونية.
٦٢. عمر شبانة: فدوى طوقان... من القهر والحرمان تنتج الشعر والمقاومة، صحيفة الحياة الجديدة، رام الله، العدد ٢٩٣٢، الخميس ١٨/١٢/٢٠٠٣م، ص١١.

٦٣. محمد صابر عبيد: تمظهرات الشكل السيرذاتي... قراءة في تجربة محمد القيسي السيرذاتي. على موقع الانترنت:
http://www.awu-dam.org/book/05/study05/179-M-A/book05-sd003.htm
٦٤. المرجع والصفحة نفسهما.
٦٥. عوض: مرجع سابق، نفس الصفحة الالكترونية.
٦٦. حوراني: الحنين، مرجع سابق، ص١٠٦.
٦٧. مؤثرات المكان في قصص سميرة عزام... مجموعة الساعة والإنسان نموذجاً. على موقع الانترنت: http://www.haifalana.net/articalphp?idarticale=30
٦٨. حوراني: الحنين، مرجع سابق، ص٨.
٦٩. حوار مع الشاعر الفلسطيني إيهاب بسيسو، نفس الصفحة الالكترونية.
٧٠. تينا شرويل: سلطة المكان وعرض المشهد في أعمال الفنانين الفلسطينيين، نشرة الفن والحرب، تغطية خاصة للمؤتمر الثالث لمعهد غوتة، رام الله، ٢٣/١٢/٢٠٠٤م، ص٤.
٧١. عبد الله أبو راشد: بانوراما الفن التشكيلي الفلسطيني (٣). على موقع الانترنت:
http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?xyz
٧٢. عبد الله أبو راشد: بانوراما الفن التشكيلي الفلسطيني (١). على موقع الانترنت:
http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?xyz
٧٣. عمر شبانة: ملامح من صورة الأرض في الأدب الفلسطيني. على موقع الانترنت:
http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?xyz
٧٤. المرجع والصفحة نفسهما.
٧٥. المرجع والصفحة نفسهما.
٧٦. ناهض زقوت: انعكاس الارهاب الصهيوني على الرواية الفلسطينية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، رام الله، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٧.
٧٧. بشار إبراهيم: عن الذاكرة الشفهية ومسائل الهوية الوطنية في السينما الفلسطينية. على موقع الانترنت:
http://www.haifalana.net/article.php?id_article=72
٧٨. عبيد: مرجع سابق، نفس الصفحة الالكترونية.
٧٩. مخولي: مرجع سابق، نفس الصفحة الالكترونية.
٨٠. العزة: مرجع سابق، ص ٢٥.
٨١. ضهير: مرجع سابق، ص ٥٧.
٨٢. العزة: مرجع سابق، ص٢٥.
٨٣. باشلار: مرجع سابق، ص٧٤.

٨٤. يحيى: مرجع سابق، ص ٧٠.
٨٥. محمود درويش: المنفى المتدرج، صحيفة حق العودة، تصدر عن بديل "المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين"، بيت لحم، كانون الثاني ٢٠٠٤م، ص٢٠.
٨٦. خالد منصور: مرجع سابق، ص٢٤.
٨٧. باشلار: مرجع سابق، ص٧٦.
٨٨. قطب: مرجع سابق، ص ٢٩٥.
٨٩. ضهير: مرجع سابق، ص٥٥.
٩٠. عابد الزريعي: اللاجئون في الأدب الشعبي الفلسطيني. على موقع الانترنت:
http://www.alwatanvoice.com/arabic/news.php?go=show&id=21587
٩١. سمر شاكر شاهين (تحقيق): معمر من المجدل يستعيد ذكريات مدينته، صحيفة القدس، القدس، العدد ١٢٣٤٨، الاثنين ٢٠٠٤/٠١/٠٥م، ص ٢٤.
٩٢. نارمين أسعد عيسى: الذاكرة لدى الطفل الفلسطيني، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي: التاريخ الشفوي... الواقع والطموح، مركز التاريخ الشفوي، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، ١٥– ٢٠٠٦/٠٥/١٦م، ج٢، ص٨٠٠.
٩٣. المرجع والصفحة نفسهما.
٩٤. العائدي: مرجع سابق، ص ٢٢٨.
٩٥. سائد أبو فرحة (حوار): الدكتور عادل يحيى: آلية التعامل مع قضية العودة تختلف من جيل لآخر، صحيفة شمل "مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني"، رام الله، الأربعاء ٢٠٠٤/٠٣/٣١م، ص٧.
٩٦. يحيى: مرجع سابق، ص٦٦.
٩٧. كناعنة: مرجع سابق، ص٣٢.
٩٨. قراقع: مرجع سابق، ص ٣٢.
٩٩. جريس: حكاية عروس الجليل، مرجع سابق، ص ٢١.
١٠٠. أبو فرحة: مرجع سابق، ص٧.
١٠١. العائدي: مرجع سابق، ص ٢٢١– ٢٢٢.
١٠٢. ضهير: مرجع سابق، ص٨٨.
١٠٣. يحيى: مرجع سابق، ص٧١.
١٠٤. خالد منصور: مرجع سابق، ص٢٤.

المصادر و المراجع:

١. أمير غيلات: الطنطورة ٤٨... تفاصيل ليلة المجزرة، صحيفة الأيام، رام الله، العدد ١٤٦٩، السبت، ٢٢/٠١/٢٠٠٠م.

٢. بشار إبراهيم: عن الذاكرة الشفهية ومسائل الهوية الوطنية في السينما الفلسطينية، على موقع الانترنت:
http://www.haifalana.net/article.php?id_article=72

٣. بشار دراغمة (حوار): فدوى طوقان في آخر لقاء صحفي تروي رحلة العمر الصعبة، صحيفة الحياة الجديدة، رام الله، العدد ٢٩٢٨، الأحد١٤/١٢/٢٠٠٣م.

٤. تينا شرويل: سلطة المكان وعرض المشهد في أعمال الفنانين الفلسطينيين، نشرة الفن والحرب، تغطية خاصة للمؤتمر الثالث لمعهد غوتة، رام الله، ٢٣/١٢/٢٠٠٤م.

٥. حافظ محمد جمال الدين المغربي: شعرية المكان والزمان،على موقع الانترنت:
http://www.althakerah.net/sub.php?idauther=&loc=&mid=2759&level=3&locat=&head

٦. خالد منصور: سلام عليك يا أم الزينات، صحيفة حق العودة، العدد ١٠-١١، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥م.

٧. خليل مبروك: شاهد على وجع النكبة ومعاناة اللاجئين في وطن اللاأرض ومعسكرات الاغتراب، صحيفة القدس، القدس، العدد ١٢٣٤٨، الاثنين ٠٥/٠١/ ٢٠٠٤م.

٨. رنين جريس: حكاية عروس الجليل: ترشيحا، صحيفة حق العودة، العدد ٢٠، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لحقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، كانون أول ٢٠٠٦م.

٩. رنين جريس: قرية سحماتا.... حكايات التهجير وحنين العودة، صحيفة حق العودة، العدد ١٩، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، أيلول ٢٠٠٦م.

١٠. سائد أبو فرحة (حوار): الدكتور عادل يحيى: آلية التعامل مع قضية العودة تختلف من جيل لآخر، صحيفة شمل (مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني)، رام الله، الأربعاء ٣١/٠٣/٢٠٠٤م.

١١. سعيد أبو معلا (حوار): الأديب عدنان كنفاني... مسكون المكان وساكنه، صحيفة الأيام، رام الله، العدد ٣٧١٥، الثلاثاء ٢٣/ ٠٥/ ٢٠٠٦م.

١٢. سلمان أبو ستة: حق العودة مقدس وقانوني وممكن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٣. سلمان ناطور: مفاتيح أبو سلمى وزنزانة تداعيات ما بعد النكبة، صحيفة حق العودة، العدد ١٠–١١، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، أيار٢٠٠٥م
١٤. سليم مخولي: ذاكرة مكان... كفر برعم،على موقع الانترنت:
http://www.ibdaa3.com/saleem%201.htm
١٥. سمر شاكر شاهين (تحقيق): معمر من المجدل يستعيد ذكريات مدينته، صحيفة القدس، القدس، العدد ١٢٣٤٨، الاثنين ٠٥/٠١/٢٠٠٤م.
١٦. سمر شاهين (تحقيق): صحيفة القدس تتجول في ذاكرة لاجئة معمرة من إسدود، صحيفة القدس، القدس، العدد ١٢٢٣٧، الأحد ١٤/٠٩/ ٢٠٠٣م.
١٧. سمر قطب (ترجمة): ذاكرة الدم... ذاكرة الحجر (خمس شهادات فلسطينية)، مجلة صامد، العدد ١١٣، مؤسسة صامد، بيروت، تموز – آب – أيلول – ١٩٩٨م.
١٨. سميرة عوض (حوار): محمود درويش في حواره مع الرأي: الشعر يقاوم كل ما يعيق تطور حرية الإنسان والإبداع، على موقع الانترنت:
http://www.ninfo.gov.ps/culture/Arabic/31–07–04htm
١٩. شريف كناعنة: لقد كنت حاضراً، صحيفة حق العودة، العدد ١٠–١١، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥م.
٢٠. عابد الزريعي: اللاجئون في الأدب الشعبي الفلسطيني،على موقع الانترنت:
http://www.alwatanvoice.com/arabic/news.php?go=show&id=21587
٢١. عادل يحيى: اللاجئون الفلسطينيون (تاريخ شفوي)، المؤسسة الفلسطينية للتبادل الثقافي، رام الله، ١٩٩٨م.
٢٢. عباس نمر: الطابون في التراث الشعبي الفلسطيني، صحيفة القدس، القدس، الاثنين ٠١/٠٧/١٩٩٦م.
٢٣. عبد الرازق اليحيى: عبد الرازق اليحيى بين العسكرية والسياسة (ذكريات)، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل)، رام الله، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٦م.
٢٤. عبد السلام الريماوي: شيوخ يتذكرون نكبة الشعب الفلسطيني، صحيفة صوت النساء، رام الله، العدد ١٢٠، الخميس ١٧/٠٥/ ٢٠٠١م.
٢٥. عبد الفتاح القلقيلي: الأرض في ذاكرة الفلسطينيين، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل)، رام الله، ٢٠٠٤م.
٢٦. عبد الله أبو راشد: بانوراما الفن التشكيلي الفلسطيني (١)، على موقع الانترنت: http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?xyz

٢٧. عبد الله أبو راشد: بانوراما الفن التشكيلي الفلسطيني (٣)، على موقع الانترنت:
http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?xyz
٢٨. علاء الدين ضهير(إعداد): شهود النكبة... روايات شفوية للشهود العيان على حرب عام ١٩٤٨م، وحدة الإعلام (زاجل)، دائرة العلاقات العامة، جامعة النجاح بنابلس، ٢٠٠٦م.
٢٩. علي العائدي: ذاكرة النكبة وشهادات أصحابها، مجلة صامد، العدد ١١٤، مؤسسة صامد، بيروت، تشرين الأول – تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٩٨م.
٣٠. عمر شبانة: فدوى طوقان... من القهر والحرمان تنتج الشعر والمقاومة، صحيفة الحياة الجديدة، رام الله، العدد ٢٩٣٢، الخميس ٢٠٠٣/١٢/١٨م.
٣١. عمر شبانة: ملامح من صورة الأرض في الأدب الفلسطيني، على موقع الانترنت:
http://www.thaqafa.org/Main/default.aspx?xyz
٣٢. عيسى العزة: أبعد من ذاكرة، صحيفة حق العودة، العدد ١٠– ١١، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥ م.
٣٣. عيسى قراقع: في ذلك الكهف، صحيفة حق العودة، العدد ١٠ – ١١، عدد خاص بمناسبة مرور سبعة وخمسون عاماً على النكبة، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، أيار ٢٠٠٥م.
٣٤. غاستون باشلار: جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٤، ١٩٩٦م.
٣٥. فاروق وادي: ذاكرة الخمسين... نصف قرن على الرحيل، مجلة صامد، العدد ١١٤، مؤسسة صامد، بيروت، تشرين الأول – تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٩٨م.
٣٦. فيصل حوراني: الحنين... حكاية عودة، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل)، رام الله، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٦م.
٣٧. فيصل حوراني: دروب المنفى... الوطن في الذاكرة، مركز اللاجئين والشتات الفلسطيني (شمل)، رام الله، مؤسسة الدراسات المقدسية، القدس، ٢٠٠٤م
٣٨. مالك الريماوي: الحكاية... جغرافية المعنى وترحال الخيال، قراءة في كتاب حكايات عتيقة، صحيفة الأيام، رام الله، العدد ٣٤١١، الثلاثاء ٢٠٠٥/٠٧/١٩م. وكتاب حكايات عتيقة من تأليف أرمينيو المندروس، ترجمة أحمد يعقوب، منشورات مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، رام الله.
٣٩. محمد توفيق الصواف: صورة الأرض في الأيديولوجيا الصهيونية، مجلة صامد، العدد١١٣، عدد خاص بمناسبة مرور خمسون عاماً على نكبة فلسطين، مؤسسة صامد، بيروت، تموز – آب – أيلول ١٩٩٨م.

٤٠. محمد صابر عبيد: تمظهرات الشكل السيرذاتي... قراءة في تجربة محمد القيسي السيرذاتي، على موقع الانترنت:
http://www.awu-dam.org/book/05/study05/179-M-A/book05-sd003.htm
٤١. محمود درويش: المنفى المتدرج، صحيفة حق العودة، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، كانون الثاني ٢٠٠٤م.
٤٢. مصطفى كبها: جولة في سنديانة الروح،على موقع الانترنت:
http://www.arabs48.com/display.x?cid=1&sid=23&id=35170
٤٣. نارمين أسعد عيسى: الذاكرة لدى الطفل الفلسطيني، كتاب أبحاث المؤتمر العلمي: التاريخ الشفوي... الواقع والطموح، ج٢، مركز التاريخ الشفوي، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠٠٦م.
٤٤. ناهض زقوت: انعكاس الارهاب الصهيوني على الرواية الفلسطينية، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، رام الله، ط١، ٢٠٠٢م.
٤٥. هبه فيصل زعبي: متحف نصراوي للتراث الفلسطيني، صحيفة المشهد الإسرائيلي، تصدر عن مدار)المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية(، رام الله، العدد ١٣١، الثلاثاء ١٨/٠٤/٢٠٠٦م.
٤٦. واكيم واكيم: المهجرون اللاجئون في وطنهم منذ النكبة ١٩٤٨م، مجلة صامد، العدد ١١٣، مؤسسة صامد، بيروت، تموز– آب – أيلول ١٩٩٨م.
٤٧. يحيى القيسي: الثقافة العربية تخسر بموت إحسان عباس ناقداً ومحققاً ومترجماً وأكاديمياً من طراز رفيع، صحيفة الحياة الجديدة، رام الله، الخميس ٠٧/٠٨/٢٠٠٣م.
٤٨. صحيفة القدس الفلسطينية، العدد ١٢٣٢٦، الأحد ١٤/١٢/٢٠٠٣م.
٤٩. حوار تلفزيون المستقبل اللبناني مع الشاعر الفلسطيني إيهاب بسيسو المقيم في لندن،على موقع الانترنت:
http://www.almustaqbal.com/storiesaspx?categoryID=8&issueID=1050
٥٠. صحيفة حق العودة تحاور الدكتور إبراهيم رزق عطا الله حول كتابه الجديد: إقرث... قضية شعب وحق وأمل، صحيفة حق العودة، العدد ٢٠، تصدر عن بديل (المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين)، بيت لحم، كانون أول ٢٠٠٦م.
٥١. مؤثرات المكان في قصص سميرة عزام... مجموعة الساعة والإنسان نموذجاً، على موقع الانترنت:
http://www.haifalana.net/articalphp?idarticale=30